9me Année No. 432

Lundi - 13 - 10 - 1941

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة التاسعة — « القاهرة في يوم الإثنين ٢٢ رمضان سنة ١٣٦٠ — الموافق ١٣ أكتوبر سنة ١٩٤١ » — العـــدد ٤٣٢

الفهـــــرس

من أحاديث القهوة

— ٣ —

حبسني عن ندائي « الكافورة » عوادٍ من الشغل والمرض فلم أعد إلى الأنس بهم إلا بعد حين. وهذا الحين على قصره كان كافياً أن يحمل الحال غير الحال، ويبدّل الجو غير الجو. هذه طلائع الخريف الباكر قد هيمنت على الأفق: فالرياح السوافي تنوح على عذبات الشجر الوريق فيرتعد فَرَقاً من نذير الجفاف والموت؛ والغمائم الرقاق تتجمع غُبراً كخَمْل النعام، أو تتفرق بيضاً كندوف القطن، فيتعاقب من تجمعها وتفرقها الظلام والنور والظل والحرور على صفحة النهر ووجه الأرض

وطلائع الخريف تبكر في الريف فتحدث في نظام الطبيعة قليلاً من الفوضى. ذلك أن الفيضان يشارف غايته المقدورة في أوائل سبتمبر، فيُترع النيل كل القنوات، ويغمر أكثر الحقول، ويكون من جراء هذا الري الطافح أن يفتر الحر، ويرطب الهواء، وينعقد بخار الماء سحباً في السماء، وأندية على الأرض، فلا تجد أواخر الصيف مناصاً من الرحيل. وفي رحيل الصيف على هذه الحال الفاجئة اضطراب في حياة الناس والزرع. فالقطن يعوقه احتجاب الشمس عن إكمال النضج فيفسد لوزه، والإنسان يُعجله تغير الجو عن اتخاذ الحيطة فيميل اعتداله

***

سكنت الريح بعد هبّة حمقاء هصرت غصون الشجر ، وكشفت أغطية المناضد ، وقلبت وجوه الحُدّاث والجُلاّس فقطعوا سلاسل الحديث، واسترجعوا رسُل النظر. وكان إخواننا المصطافون قد نابهم من ثورة الريح ما ناب الناس ؛ فانزوى كل امرئ عن أخيه وانطوى على نفسه . فلما سكت عن الريح الغضب عادوا يستقبلون أنفاس الموج ، ويستروحون أنسام الزروع ، ويستمعون إلى الأستاذ نجيب ، وكان يتحدث عن مشكلات التموين ومخزيات الإدارة . والأستاذ نجيب مدرس بكلية الآداب ، قضى أسابيع من عطلته عند أهله في سمنود . وكان له بجانب ذهنه معدة كمعدة الأحياء لا تفتأ تطلب القوت . والقوت اليوم بفضل الطاغية « هتلر » لم يعد كما كان مبذول المنال يأتيك على اغتماض وأنت وادع ؛ إنما أصبح عزيز الدرك لا تناله إلا ببطاقة أو صداقة أو شفاعة . فكان يلقى كتابه من يده ، ثم يخرج ومعه بطاقة التوزيع يسأل عن القمح فلا يجاب ، ويبحث عن البترول فلا يجد

نظام البطاقات محكم دقيق يضمن لكل بطاقة رصيدها ، ولكل مستهلك نصيبه ؛ فمن أين جاء الحرمان والخير موجود ، وكيف سيطرت الفوضى والنظام قائم ؟ كان الأمين الذي جعلته الحكومة على خزائن التموين قد قضى أن يكون مع بطاقة التوزيع تصريح منه لا يظفر به إلا ذو المال أو الجاه أو القربى ؛ وصديقنا الأستاذ لم يؤته الحظ شفاعة من هذه الشفاعات الجابة ، فبقى في جمهرة الفقراء يحتشدون كل يوم على باب الأمين يسألون فيه غير مجيب ، ويسترحمون منه غير راحم . قال الأستاذ وقد نبض من الغيظ نابضه ، فارتجفت شفتاه وتهدج صوته :

كان مئات من ذوى الضعف والمسكنة يتركون بيوتهم صفراً من القوت والوقود ويظلون النهار كله على باب هذا (الحاكم) قياماً وقعوداً وبأيديهم القفف والأكياس ، وفي جيوبهم البطاقات والنقود ، يسألونه التصريح مرة بالدعاء ومرة بالبكاء ، فلا يجيبهم غير الجنود بعصيهم الملهبة ، وكلماتهم الغليظة ؛ حتى إذا أمسى المساء انصرف المجدودون بتصاريحهم إلى تاجر بعينه يكتالون بالسعر المقرر ، وانقلب المكدودون بأوعيتهم إلى التاجر نفسه يكتالون بالسعر المكرَّر . ومن حُرَق البائسين ودموع اليتامى تنتفخ جيوب وتكتظ كروش ؛ وبأمثال هذا الموظف وذلك التاجر تدول دول وتسقط عروش !

قلت : وما يدريك يا نجيب ، لعل الحال في بلدك هي الحال في كل بلد ! لقد فجر التجار وهوّدتهم المطامع ، فاحتكروا السلع ، واختزنوا الأرزاق ، وعموا عن طريق الحق ، وصموا عن نداء الضمير ، ولم تزعهم خشية الله ولا سطوة الحكومة ؛ لأن الله يمهل ، ولأن الإنسان يهمل . والقانون من غير تنفيذ ورق مطبوع ، والتنفيذ من غير خُلُق ظلم مسلَّح

إن في مخازن الأغنياء ومخابئ التجار من الأقوات ما لو عُرض للبيع المشروع لأعاد إلى الناس عيشهم الأول ؛ ولكن الفقدان والحرمان سيدومان ما دام للطامع يد وليس له قلب ، وللحكومة لسان وليس لها عين

إن الحكومة قد أيقظت وعيها ورأيها لشؤون الوقاية والتموين ؛ وفي سبيلهما تستطيع أن تبتكر الأسلوب البارع وتسن النظام المحكم ، ولكنها لا تستطيع أن تبعث النور في الحس المظلم ، ولا الشعور في الفؤاد المصمت

هذه انجلترا تموّن ملايين الجنود من نهر النيل إلى بحر قزوين ، ومن أقصى المحيط الغربي إلى أقصى المحيط الشرقي ؛ فهل تجد مع ذلك جندياً في البر أو في البحر أو في الجو يزعم أن نصيبه الموفور من الطعام والشراب والفاكهة والخمر والحلوى والعتاد والسلاح والذخيرة لم يدركه في موعده الموقوت على أكمل نظام وأعدل قسمة ؟ وهل كان هذا العمل المعجز ممكناً لو لم يكن بإزائه خلق يعين على قضاء الحق ، وضمير يحث على أداء الواجب ؟

قال الأستاذ على : وهل عطل الأنظمة ، وعوّق الإصلاح ، وأوهن العلائق ، وشتت الوحدة ، وأشاع البؤس ، غير فساد الأخلاق ؟ إن ما أصابنا من نكد العيش وذل النفس وحبوط العمل ، نتيجة محتومة لما أصبنا من خبث الجور وقبح الأثرة وسخف الذمة « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » . فقال الأستاذ توحيد : إن التعبير هنا بالدابة من معجزات البلاغة القرآنية ؛ فإن الناس إذا زاغوا عن طريق العدل ، وخرجوا على منطق العقل ، لا يصدق عليهم غير هذا اللفظ

وعادت الريح الباردة تهب هبوب الخلق الشموس فقطعت الحديث ، وقوضت المجلس ، وأنذرت القوم أن يهجروا الكافورة حتى يعود الربيع

المنصورة في ١٨/٩/١٩٤١ احمد حسن الزيات

الصلات الأدبية والعلمية

بين مصر والعراق

للدكتور زكي مبارك

قضى سعادة الدكتور محمد فاضل الجمالي في مصر نحو شهرين كان فيهما موضع الحفاوة والترحيب من أكابر المصريين، فالتفتت الأذهان من جديد إلى وجوب توكيد الصلات الأدبية والعلمية بين مصر والعراق. ويزيد في أهمية هذا الالتفات وجاهة الغرض الذي حضر لتحقيقه هذا المربي الفضال، فقد جاء يستحث المدرسين المصريين إلى المسارعة بالتوجه لخدمة العلم في المدارس العراقية، وعددهم في هذه المرة كثير جداً بحيث يكفي لتوكيد تلك الصلات إن أدرك جميع هؤلاء المدرسين أنهم سفراء مودة وإخلاص؛ والمأمول أن يدركوا هذا المعنى أتم الإدراك بفضل ما سيلقون في بلاد الرافدين من الإعزاز والتبجيل. أسبغ الله عليهم أثواب العافية، وجعل التوفيق حليفهم في جميع الشؤون!

أما بعد فموضوع هذا المقال مستوحى من زيارة الدكتور الجمالي، وقد كان يجب أن نتحدث عنه في «الرسالة» قبل اليوم، لأنه لم يزر مصر إلا موفداً لمهمة من أشرف المهمات، وكان ذلك يوجب أن نتحدث عن قدومه ولو بعبارة وجيزة في البريد الأدبي، ولكن الدكتور الجمالي نفسه هو سبب ما وقع من السكوت، فقد بدا لي أن أوجه إليه طائفة من الأسئلة المكتوبة ليجيب عنها إجابات مكتوبة طلباً للسلامة من الخطأ والتحريف، ورعايةً لمركزه الدقيق، وهو مركز لا يبيح له أن يتحدث عن الصلات بين مصر والعراق بلا تدبر ولا إمعان، فقد رأيته غضب حين قرأ في إحدى الجرائد أنه سئل عن النظام الجديد في بلاده بعد الثورة الكيلانية وأنه أجاب بكيت وكيت، فلما سألته عن سبب غضبه مع أن الجواب المنسوب إليه لا غبار عليه قال: لا يليق بمن يوفَد لمهمة علمية أن يتكلم عن شؤون سياسية

وأريد أن أقول إن الدكتور الجمالي حار في الإجابة عن الأسئلة التي وجهتها إليه، وكانت تلك الحيرة سبباً في أن تتأخر الإجابة أسابيع، فلم يقدمها إلي إلا وهو يتأهب للرحيل

عواطف نبيلة

وقبل أن أسوق الأسئلة والأجوبة أذكر أن الدكتور الجمالي أقام برهاناً جديداً على أصالة الأريحية العراقية، فكان اهتمامه عند حضوره مقصوراً على زيارة الرجال الذين تشرفوا بخدمة العلم في العراق، فزار الأستاذ محمد عبد العزيز سعيد «أول أستاذ مصري قدم للعراق، ونظّم دار المعلمين، وكان الدكتور الجمالي من أوائل تلاميذه في سنة ١٩١٨» وزار الدكتور السنهوري الذي رفع القواعد من كلية الحقوق العراقية؛ وسأل عن الأستاذ الزيات بلهفة وشوق فعلم أنه بعيد عن القاهرة، وتفضّل فزارني في سنتريس ليرى البلد الذي قال فيه الشاعر عبد الرحمن البنّاء:

لِبُعدكَ كابدتْ بغدادُ حُزناً   وإن فرحتْ بقربك سنتريسُ

ولن أنسى أبداً أن الأسابيع التي قضاها الدكتور الجمالي في مصر كانت عندي من المواسم الروحية، فقد كان يسأل عني في كل يوم، كأنه رب البيت وكأنني الضيف

أخت بغداد والألقاب

واتصلت أيام الدكتور الجمالي عندنا بفكاهات كثيرة كان يوجهها إليَّ أقطابُ وزارة المعارف من وقت إلى وقت، منها السؤال الذي واجهني به سعادة الأستاذ شفيق بك غربال:

— سمعت أنك لم تُصَب بأخت بغداد، فهل هذا صحيح؟

— أُصِبت بالأخت الحقيقية لبغداد، وهي «ليلى المريضة في العراق» وفي هذه الإصابة مناعة من جميع العلل والأدواء.

وفي إحدى سهراتنا أعلن الدكتور الجمالي ثورته على كثرة الألقاب في مصر، فأجبت بأن الحال في مصر غير الحال في العراق، فالظاهر أن الألقاب كانت تُشترى بأبخس الأثمان فيظفر بها من لا يستحقون التبجيل، ولهذا ثار عليها العراقيون؛ ولا كذلك الحال في مصر، فالألقاب عندنا لا ينالها من ليس لها بأهل، وإن كان في النحو باب يسمى باب الاستثناء

وأردت أن أنتقم من الدكتور الجمالي فكنت أخاطبه بعبارة: يا فاضل بك؛ فلم يمض إلا وقت قليل حتى استأنس بلقب البكوية كل الاستئناس، إلى الحد الذي سمح له بأن يسأل عن حظي من الألقاب الرسمية بعبارة تفيض بالعطف. وقد تحزّن حين أجبته بأن الألقاب لا تمنح الموظفين إلا حين تصل مرتباتهم

إلى مبلغ لا أصل إليه إلا بعد أعوام طوال ، ثم أردت أن أطمئنه فقلت : ولكن لا موجب للجزع فقد تنفع المؤلفات فى الظفر بالألقاب !

ومن المنتظر أن يستوحش فاضل « بك » حين يُنزع منه هذا اللقب بعد وصوله إلى بغداد ، ودنيا الألقاب إلى زوال !

الجواب المحذوف

فى الأسئلة التى وجهتها إلى الدكتور الجمالى سؤالٌ يقول : ما هى الشخصيات التى ظفرت بإعجابكم ؟ وما الشمائل الأصيلة لتلك الشخصيات ؟

وأجاب الدكتور الجمالى عن هذا السؤال بصفحة كاملة ، ثم عاد فخلط بياضها بسوادها فلم أتبين منها غير أشباح ، وإن كان تفضل فأبقى العبارة الخاصة بأحد الرجال . وقد سألته عن السبب فى حذف هذا الجواب فاعتذر بأنه قد يعرّضه إلى محرجات

وأجهدتُ عينىّ فى تعرّف تلك الأسماء فلم أهتد إلا إلى سمات خطية عرفت منها أسماء : السنهورى وغربال ومشرّفة وجوهر والقبانى وفهيم

وكان قبل ذلك حدثنى عن إعجابه بالدكتور سليمان عزمى والأستاذ على بدوى

وللدكتور الجمالى الحق كل الحق فى أن يسكت عمن عرف فى مصر من الرجال ، فلكل رجل فى مصر خصائص تتعب من يهمه التحدث عنها بإيجاز أو إطناب . وغنى مصر بالرجال لا يحتاج إلى بيان ، والذى يتصل بمصر وهو فى مثل ذكاء الدكتور الجمالى وإخلاصه لا يستطيع النجاة من الفُتُون بما لرجالها من رجاحة العقل ، ونفاذ البصيرة ، وقوة اليقين

أما إعجاب المصريين بالدكتور الجمالى فهو إعجابٌ صادق ، وقد أطلعوه على دقائق النهضة العلمية والأدبية والفنية والاجتماعية . وتفردت أنا بإطلاعه على دقائق الحياة الشعبية ، وذلك جانب يراه بعض الناس من المبتذلات وأراه من الطرائف ، فما فى مصر بقعة إلا وهى مصدر وحى أو مبعث خيال

زرت مع الدكتور الجمالى أكثر الأحياء الوطنية ، الأحياء التى نبت فيها آباؤنا وأجدادنا قبل أن يعرفوا المدنية الغربية ، الأحياء التى أوحت ما أوحت من فنون الرأى والعبقرية ، زرت معه « حىّ الخليفة » الذى نشأ فيه مصطفى كامل ، وهو حىٌّ تغلب عليه البداوة ولكنه مزوّد بقوة الروح ، وفى رحابه نشأ كثير من جنودنا الأبطال

والأخوّة التى بينى وبين الدكتور الجمالى فرضتْ عليه أن يرى مصر بعينىّ ، مصر التى لم يُخلَق مثلها فى البلاد ، مصر التى وُلد فيها موسى ، ونشأ بها عيسى ، وصاهرها محمد ، وهم صفوة الأنبياء

لم أر فى مصر شيئاً يجب إخفاؤه عن رجل من أرباب القلوب ؟ وإذا احتاجت مصر إلى الدفاع عن نفسها ، فلن يكون ذلك إلا بفضل جناية الجمال على الجيل

جمالُكِ فاتنٌ والحسنُ ذنبٌ لأهل الحسنِ فى شرع الذئابِ
فما شكواكِ من ظلماء طالت وتلك جنايةُ المجد اللُّبابِ

إن استباح السفهاء من أهل البغى أن ينالوا مصر بسوء ، فسيكون لهم من وراء البغى ألوان وصنوف من غضب صاحب العزة والجبروت

مصر التى لم يهتف بمثلها شاعر ولا كاتب ولا خطيب ، مصر التى لم يتفتح الزهر فى أرض أكرم من أرضها ولا أخصب ، مصر التى لم يخطر على ثرى غير ثراها أسرابٌ لا ترى مثلها العيون فى شرق ولا غرب

مصر الجميلة الغالية ليس فيها ما يعاب ، فمن حق أن أطلع على خفاياها من يشاء ، فإن صحّ أن فيها ما يشوك ، فهو سواد الخال فى الخد الأسيل

بكاء غريب الألطاف

البكاء محرّم على الرجال إلا فى مقامين اثنين : مقام الشوق إلى الله ، ومقام الحزن لفراق الأحباب . والمقام الثانى صورة لا ينجينى من أطيافها المزعجات إلا تدوينها على القرطاس ، فإن الإنشاء كالبكاء يخفف ما تعانى القلوب من لواعج وأحزان . وكيف نعيش لو حُرمنا الخلوة إلى القلم من وقت إلى وقت ، وقد أقفرت الدنيا من الصديق الذى تنفض بين يديه ما فى صدورنا من أشجان وكروب ؟

والصورة الآتية من صور البكاء تستحق التسجيل ، فهى واضحة الدلالة على أن الأخوة العربية قد انتقلت من حال الشرح والتفسير إلى حال الذوق والإيمان . فما تلك الصورة من البكاء ؟ فى الأيام الأخيرة لإقامة الدكتور الجمالى بالقاهرة جدّت

شواغل منعتنى من الأنس بهذا الصديق الغالى ، وهى الشواغل التى تصحب افتتاح العام الدراسى ، ومع ذلك عرفت أنه سيغادر القاهرة فى عصر هذا اليوم (٤١/١٠/١)

وقبل الموعد المحدد لقيام القطار بنحو خمسين دقيقة كنت فى الفندق الذى نزل فيه لأصحبه إلى محطة باب الحديد ، ولكنى لم أجده هناك ، ثم حضر بعد لحظات ، فكانت تحيته : لطفك يا دكتور ! وحدّق فى وجهى لحظة ثم قال : هل تعرف أنى قضيت مساء الأمس وصباح اليوم فى البكاء لفراق القاهرة ؟ فابتسمت وقلت : الجروح قصاص ، فمن واجب القاهرة أن تصنع بك بعض ما صنعت بى بغداد ، وأنا بكيت لفراق بغداد حتى رحمنى أعدائى ، فاشرب قطرة من الكأس التى شربتُه حتى الثمالة . واحترس من التزيد على المحبين !

ولم يقع فى الوهم إلا أن الدكتور الجمالى يلاطفنى بالحديث عن تحزنه لفراق القاهرة ، فهو من بلد له تقاليد فى مراعاة الآداب الإخوانية ، ولكن لم نكد نفارق الفندق فى طريقنا إلى المحطة حتى غلب الرجل على وقاره ، وأخذت دموعه تبلل خديه على نحو ما يصاب به المتيَّمون

ورأيت من الحزم أن أتجاهل ما يعانيه ، لئلا يزداد عناء إلى عناء ، فأخذت أشاغله بالسؤال عن معالى الدكتور سامى شوكت وسعادة الأستاذ طه الراوى ، وانطلقت فسردت له عشرات من الأسماء التى أحبها فى أرجاء العراق ، ولم أطو عنه إلا أسماء من صادقت من رجال الجيش ، فقد خشيت أن أسمع أن فيهم من قُتِلَ فى الحرب التى دامت ثلاثين يوماً . وكان لى فى الجيش العراق أصدقاء لا يفدون بغير الأرواح ، كتب الله لهم العافية من مكاره الصروف فى هذه الأيام !

ثم بلغنا محطة باب الحديد وقد جفت دموع الدكتور الجمالى ، فرأينا هنالك طوائف من الإخوان ينتظرون باسمين ، فسُرِّى عنه بأسرع من لمح البرق ، وأخذ يحاور ويناضل بعزيمة لا تعرف البكاء

وأراد الإخوان أن يصارحوه بحزنهم لفراقه فأشرت إليهم أن يكفوا ، فسكتوا وقد فهموا أنى أعرف من أمره ما لا يعرفون ؛ والمصرى أقدر الناس على فهم خطرات القلوب ولمحات العيون

وكان الدكتور الجمالى مع هذا مهدداً برجعة البكاء ، فقد كان يرى ناساً لا ينتظر أن يراهم فى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم من أيام رمضان ، فكان يقول لمن يراه : غريق ألطافكم ! غريق ألطافكم !

وتمت الأعجوبة حين رأى أقطاب وزارة المعارف يفدون لتوديعه وهم رجال لا تسمح شواغلهم بأداء هذا الواجب فى مثل هذه الأيام المثقلة بالتكاليف

وقد تأثر الدكتور الجمالى بهذا المنظر فكاد يبكى من جديد ، ثم صدَّه حضور صاحب الفخامة نورى باشا السعيد ، فقد أخذ يسألنى عن صحة ليلى بعبارات لا تخلو من فكاهة ومزاح

ودوَّى صفير القطار فتحاجز المودعون ، وانخرط الدكتور الجمالى فى البكاء ، البكاء الذى لا يجيده فى مثل هذا الموقف غير كبار الرجال

وما الذى يمنع الدكتور الجمالى من البكاء لفراق القاهرة ، وقد عاش فيها شهرين بعين المحب وقلب الصديق ؟

لو كان الدكتور الجمالى من الشعراء ونظم فى توديع القاهرة ألف قصيدة لكان تعبيره عن أساه أقل بياناً من تلك الدموع النبيلة وقد جاد بها قلب نبيل

الثقافة المصرية

حدثنى الدكتور الجمالى قال : « شُغلتُ عن مسايرة الثقافة المصرية نحو عشر سنين ، بسبب التفاتى إلى الثقافة الإنجليزية ، ثم كانت هذه الزيارة فتحاً جديداً ، وقد اشتريت من المؤلفات المصرية ما ملأ حقيبتين كبيرتين ، فحبى القديم لمصر أضيف إليه حب جديد ، كنت أحبها للأخوة العربية ، فصرت أحبها للأخوّة العلمية ، وإعجابى بتقدُّم مصر العلمىّ جاوزَ ما كنتُ أقدّر من الفروض »

ومع أنه زار مصر فى أشهر العطلة المدرسية فقد عرف كيف يدرك ما عندنا من مذاهب الحياة التعليمية ، بفضل صلاته الوثيقة برجال التعليم ، وبفضل ما فطر عليه من حب الاستقصاء

وليس معنى هذا أن مصر وصلت إلى ما لم يصل إليه أحد فى العالمين ، ولكن معناه أن الرجل شُغِل بالمحاسن عن العيوب ، فلم تقع عيناه فى مصر على شىء غير جميل

وهذه النظرة الودية هى أساس التعارف الصحيح ، والداعون إلى الوحدة العربية فاتهم هذا الجانب ، وهو الابتداء بخلق صلات روحية وذوقية تصل العربى بأخيه عن طريق الحب والصفاء

أسئلة وأجوبة

لم يبق إلا أن نذكر بعض ما دوّنه الدكتور الجمالي بخطه ، مكتفين بالأهم ، لضيق المجال

س — ما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها المصري حين يخدم العلم بالعراق ؟

ج — كل ما نريده للمصري الذي يأتي لخدمة العراق هو أن يشعر بأنه في بلاده وبين أهله وإخوانه ، ومتى شعر بأنه يخدم أبناء قومه فلا أشك في أن عمله سيكون مثمراً أطيب الثمر . وإني لأنصح لمن يشتغل بالتعليم في العراق أن يبتعد عن البحث في القضايا السياسية والأمور المذهبية ، فما دخلت هذه البحوث في دور العلم إلا أفسدتها

س — أتراك مطمئناً إلى صحة القول بأن مصر صلة الوصل بين الشرق والغرب ؟

ج — إن مصر خير مثال لبلد تمسَّك بشرقيته ثم غذاها بالنتاج الثقافي الغربي ، فمصر عربية في روحها ، إسلامية في تقاليدها ، وهي مع ذلك تأخذ عن الغرب أساليبه العلمية ، وأنظمته الصناعية والزراعية والتجارية ، فهي بودقة تصهر ثقافتي الشرق والغرب ، ونرجو أن تخرج منهما ثقافة موحدة لمحاسن كلتيهما ، وإذ ذاك تصبح مصر ومن ورائها البلاد العربية صلة الوصل بين الشرق والغرب حقاً

س — ما الذي تحب أن يُنقل من شمائل بغداد إلى القاهرة ومن شمائل القاهرة إلى بغداد

ج — أحب أن تُنقل بعض شمائل القاهرة إلى بغداد ، لا سيما ما يتعلق بتنظيم العمران وفتح الشوارع وتشجيرها والإكثار من الميادين والحدائق العامة ، ولا أرى ما يمكن نقله من بغداد إلى القاهرة

س — هل اتسع وقتك للنظر في الفروق بين المناهج المصرية والمناهج العراقية ؟

ج — هناك فروق بين مناهج التعليم في مصر والعراق ، وهذه الفروق ناجمة من أمرين : الأول أن العراق حديث في نظامه التعليمي ، ولم تتولد له مشاكل تاريخية بعد ، ففي وسعه أن يطبق أحدث النظريات الفنية التعليمية بدون أن تكون في الطريق عقبات خلفها له الماضي . أما أنظمة التعليم في مصر فلها تاريخ بعيد نسبياً . فلا يمكن الأخذ بما هو صالح من الجديد إلا بالتدريج . والأمر الثاني هو أن العراق قد اعتنق الفكرة العربية منذ تكوينه الجديد بقيادة المغفور له الملك فيصل الأول ، فهذه الفكرة متغلغلة في كل برامج التعليم ، ولم تصل هذه الفكرة في مصر إلى صميم التعليم بعد كما هو الحال في العراق

س — أنت زرت تركيا وكتبت عن التعليم فيها تقريراً مفصلاً ، فهل ترى وقد زرت مصر أننا قريبون أو بعيدون من الأتراك من الوجهة الثقافية ؟

ج — لا أستطيع أن أتحدث عن الثقافة التركية اليوم ، لأني لم أتتبع التطورات الأخيرة في معارف تركيا منذ وفاة المغفور له أتاتورك . أما الثقافة التركية كما عرفتها في سنة ١٩٣٧ فكانت تختلف عن الثقافة في مصر اختلافاً أساسياً وهي بعيدة عنها كل البعد . أولاً لأن الأتراك في ثقافتهم قطعوا صلتهم بالماضي ووضعوا لأنفسهم أسساً جديدة واضحة وُجهت الثقافة بموجبها ، فهم أخذوا كل ما راقهم من المبادئ الغربية وتركوا الثقافة الشرقية وراءهم . وثانياً لأن الانقلاب التركي جاء شاملاً وسريعاً ، بينما مصر تسير على الأساليب الديمقراطية التدريجية ، فهي تُبقي الجيد من القديم وتضيف إليه الحديث ، ولذلك أرى أن الشقة الثقافية قد بعدت بين البلاد العربية والبلاد التركية . هذا ما بدا لي سنة ١٩٣٧ ولا أعرف ما هو الوضع اليوم هناك

[انتهى ما اخترناه من أجوبة الدكتور الجمالي]

أما بعد فقد فرغت من كتابة هذا المقال في لحظة قدرت فيها أن الدكتور الجمالي لم يصل إلى الحدود المصرية ليجتازها إلى فلسطين . فليكن مقالي هذا تحية ثانية أقدمها إلى الصديق الذي ودع القاهرة بدموع الوفاء ، وليتفضل فيذكر أن القاهرة لا تنسى أحبابها أبداً ، ولو بَعُدت الدار وقدُم العهد

وإذا كان الدكتور الجمالي قد تلطّف فدعاني لزيارة بغداد مرة ثالثة فليعرف أني ما فارقت بغداد ، ولا غاب عن عيني محيّاها الجميل

سيَسألُ قومٌ من زكيٌّ مباركٌ ... وجسمي مدفون بصحراء صماء
فإن سألوا عني ففي مصر مرقدي ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائي

زكي مبارك

كيف يكتب التاريخ

للدكتور حسن عثمان
مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب

— ٥ —

نقــد الأصول (*)

أهمية النقد ، التزييف والانتحال وإثبات صحة الأصول

قد عرفنا أن التاريخ يدرس بواسطة الأصول كالوثائق وآثار ومخلفات الإنسان من الزمن الماضي . وحوادث التاريخ يمكن أن تعرف عن طريقين : عن طريق مباشر بملاحظة ومشاهدة الحوادث أثناء وقوعها، أو عن طريق غير مباشر بدراسة الآثار المتنوعة التي خلفتها هذه الحوادث . فالمعلومات عن حادث زلزال مثلاً يمكن معرفتها بطريق مباشر من بعض شاهدي العيان، أو بطريق غير مباشر بملاحظة آثار التدمير التي خلفتها الهزة الأرضية ، أو بقراءة وصف كتابي سجله أحد الناس عنها سواء بطريق المشاهدة أو بطريق الرواية . وهذا ينطبق تماماً على حوادث التاريخ . والحوادث والأوصاف التي يسجلها الرحالة المعاصر مثلاً تمتاز بإعطائها دقائق وتفاصيل ، وبتصويرها روح العصر ، وذلك ما لا يتاح للكاتب المتأخر . ولكنا نلاحظ أن وجود الكاتب في العصر الذي يسجل حوادثه ليس معناه أنه يمكنه الإحاطة بجميع نواحيه وإجادة الكتابة عنه . وذلك لعدة عوامل ، لاحتمال تحيزه للتيارات المتنوعة التي تسيطر على الفكر الإنساني، أو لتأثره في كتابته باتباع المصلحة للوصول إلى أغراض شخصية أو لتجنب الاضطهاد في بعض الأحيان ؛ وكذلك لعدم إمكان حصوله على جميع الأصول التاريخية ، بالرغم من عيشه في العصر الذي يدرسه ، والتي تظل خافية وممنوعة من التداول سنوات عديدة سواء لدوافع سياسية ، أو للرغبة في عدم إذاعة الأسرار الخاصة في حياة بعض الناس . فالأفضل دائماً أن يكون المؤرخ بعيداً عن العصر الذي يكتب عنه لكي تظهر الأصول والأسرار والخفايا بعد أن تتبلور حوادث التاريخ خلال الزمن الغابر

فحوادث التاريخ تعرف بصفة أساسية عن طريق غير مباشر بدراسة آثار الإنسان المختلفة التي تحفظ من الضياع . والمؤرخ في أغلب الأحوال لا يرى الحوادث نفسها ، وإنما يرى ويدرس آثارها . فآثار ومخلفات الإنسان المتنوعة هي نقطة البدء ، والحقيقة التاريخية هي الهدف الذي يتوخى المؤرخ الوصول إليه . وبين نقطة البدء والهدف يوجد طريق معقد متشابك تمتوره الأخطاء والمصاعب والعقبات العديدة ، والتي قد تبعد الباحث عن الهدف وعن الحقيقة التاريخية . والمؤرخ لا يجد غير هذا الطريق للوصول إلى غرضه . ودراسة وتحليل الأصول التاريخية في هذه المرحلة من أهم أدوار طريقة البحث ، وهي عبارة عن ميدان نقد الأصول التاريخية

وكما عرفنا نجد أن آثار الإنسان قد تكون أبنية وتماثيل ومصنوعات مادية ملموسة ، أو قد تكون آثاراً كتابية سجلها الإنسان عن الحوادث . فالنوع الأول أسهل في الدراسة لأنه توجد علاقة واضحة بين الآثار الماثلة أمام المؤرخ ، والتي يلمسها بحواسه ، وبين أسباب وجودها وارتباط ذلك بحوادث التاريخ . ولكن الكتابات التي يدونها الإنسان عن حوادث تاريخية معينة هي أثر عقلي سيكولوجي وليست الحادث التاريخي في ذاته ؛ فهي لا تزيد عن أنها مجرد رمز وتعبير عن أثر تلك الحوادث في ذهن الإنسان . فالآثار الكتابية تنحصر قيمتها في أنها عمليات سيكولوجية معقدة وصعبة التفسير ، لأن الإنسان نفسه على وجه العموم معقد مركب متضارب وصعب الفهم ، فلا ريب في أن تكون حوادثه والتعبير عنها على ذلك الغرار . وللوصول من الأصل التاريخي المكتوب إلى الحوادث ينبغي تعقب سلسلة

(*) يجد القارئ فصولا من نقد الأصول التاريخية في بعض المراجع مثل :

١ — أسد رستم : مصطلح التاريخ . بيروت ، ١٩٣٩ ص ١٥ — ١٣٠

٢ — Fling, F. M. : The Writing of History. Yale, U.S.A., 1926 pp. 48--102

٣ — Omans Sir Ch. : On the Writing of History. London, 1939. pp. 33--75

٤ — Langlois, Ch. V. & Seignobos, Ch. : Introduction to the Study of History English trans. by G. Berry. London, 1912 pp. 63—190

العوامل التي أدت إلى كتابته ؛ فلا بد من أن يحيي المؤرخ في خياله سلسلة الحوادث التي قام بها كاتب الأصل التاريخي منذ أن شاهد وجمع معلوماته عن تلك الوقائع المعينة حتى دونها في الأصل المكتوب والماثل أمام المؤرخ ، لكي يصل إلى الحوادث الأصلية . ويلاحظ المؤرخ قبل البدء في نقد الأصل التاريخي وخاصة إذا كان مخطوطاً هل هو في نفس الحالة التي وجد عليها من قبل ؟ ألم يبل ويتآكل وتضيع بعض أجزائه ؟ لكي يرممه ويجعله أقوى على البقاء والحفظ

وتوجد عدة أدوار ومراحل للنقد . فالنقد الخارجي أو الظاهري external criticism يتعلق بعدة أمور مثل إثبات صحة الأصل والخط والمؤلف ؛ والنقد الداخلي أو الباطني internal criticism ويبحث الحالات العقلية التي مر خلالها كاتب الأصل التاريخي ، فيحاول أن يعرف ما الذي قصده الكاتب ؟ وهل كان يعتقد في صحة ما سجله ؟ وهل توفرت المبررات التي جعلته يعتقد صحة ما كتبه ؟ ... وأساس النقد الحذر والشك في معلومات الأصل التاريخي ، ثم دراسته وفهمه واستخلاص الحقائق من ثناياه . والناس يتكلمون عن ضرورة النقد ولكن من الناحية النظرية فقط ؛ وهم في الغالب لا يميلون إلى تطبيقه عملياً . والإنسان في أحوال كثيرة ينقد الغير ولكن لا يحب أن يذكره الغير إلا بالمديح والثناء ! والإنسان في أحوال كثيرة أيضاً أميل إلى الكسل والاهمال . والإنسان في حياته اليومية قد يكون أميل إلى تصديق مايصادف هوى في نفسه ، وأبعد إلى تكذيب ما يصطدم بعواطفه ورغباته

والإنسان في حياته اليومية أيضاً لا يستطيع أن يقبل أقوال جميع الناس بنفس الثقة وبنفس التقدير ، لأن الناس جميعاً لهم قيم وأغراض وأهواء مختلفة . وأصحاب النفوس الزائفة يكذبون وينافقون ويغررون للوصول إلى الأغراض والمطامع . أو ليس ذلك أدعى إلى الخداع والبعد عن الحقيقة السافرة ؟ فإذا كان هذا هو الحال فيما يتعلق بالحاضر فما بالنا بحوادث الأمس ، والأمس البعيد ؟ ولقد استخدم المؤرخون في الزمن الماضي الأصول التاريخية بدون نقد أو حذر فوضعوا تعميمات خاطئة . وإنه لأسهل على الإنسان أن يصدق بغير مناقشة وأن يوافق بدون نقد وأن يجمع الوثائق والأصول التاريخية بغير تقدير أو وزن دقيق ولكن لا يستطاع الوصول إلى الحقيقة التاريخية بدون نقد الأصول كل على حدة وبدون الموازنة بينها وتحديد العلاقة بين المعلومات الواردة في كل منها ، ويستغرق ذلك زمناً طويلاً ولكن البحث العلمي التاريخي لا يمكن أن يكتب بدون ذلك . وليس هناك ما يضطر الباحث لأن يعمل فوق طاقته ، بل عليه أن يقصر عمله على النقطة التاريخية المحددة التي يستطيع أن يأتي في بحثها بعمل أصلي جديد مبتكر بالنسبة للعلم كله . والباحث في التاريخ كالباحث في أي فرع من أنواع المعرفة ، إذا عرف بإخلاص قيمة البحث العلمي الصحيح الذي يستوفي شروط الزمان والمكان لن يرضى بغيره بديلاً مهما كانت الظروف

وأول مرحلة من مراحل نقد الأصول التاريخية هي إثبات صحة أو بطلان تلك الأصول . فإذا كان المصدر أو الأصل كله أو جزءاً منه مزيفاً أو منتحلاً فإنه لا يمكن الاعتماد عليه . وصحيح أن تزييف الأصول والوثائق اليوم أصعب منه في الزمن الماضي ، ولكن دوافع التزييف والدس لا تزال قائمة كالمطامع والأهواء والكسب وحب الشهرة . والانتحال والتزييف يوجدان في كل أنواع الأصول والمصادر . فالآثار المادية تزيف من أجل الكسب في أحوال كثيرة . ومن الأمثلة على ذلك ما حدث من وجود مجموعة من الأواني والأدوات الفخارية في أورشليم في ١٨٧٢ ؛ وقد دل على وجودها سليم العربي الذي كان يعمل في خدمة بعض المنقبين عن الآثار في تلك الأنحاء ، واشترى بعضها متحف برلين، ولكن البحث العلمي أثبت أن هذه الآثار مزيفة . وفي الغالب كان سليم العربي نفسه هو صانعها بقصد الكسب . ومن الأمثلة على الكتابات المزيفة مجموعة من الخطابات والتواريخ والأشعار طبعت في إيطاليا بين سنتي ١٨٦٣ و ١٨٦٥ على اعتبار أنها قد كتبت عن جزيرة سردينيا في الفترة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر للميلاد

ولقد أثار ظهور هذه المجموعة دهشة كبيرة في الأوساط العلمية ، لأنه كان مجهولاً وجود حضارة في سردينيا من هذا النوع في ذلك العهد . وبعد نشر هذا الكتاب ، وضعت الأصول الخطية في مكتبة كالياري في سردينيا ، وحدثت مناقشات طويلة

عن هذه الآثار ، فعرضت الأصول الخطية على أكاديمية العلوم فى برلين لدرسها ، ففحص بعض العلماء الخطوط التى كتبت بها هذه الأصول ، وبحث البعض الآخر اللغة والأدب ، كما ناقش آخرون المعلومات التاريخية ، ووجدوا أن كل ما جاء بها لا ينطبق ولا يشابه ما عرف عن خطوط وكتابات وأدب وتاريخ سرديتيا فى تلك القرون ، وقرر العلماء أن هذه الآثار الكتابية مزيفة

ومن هذا النوع أيضاً نجد ملحق مذكرات « بايى » عمدة باريس وأول رئيس للجمعية الوطنية فى حوادث الثورة الفرنسية واسمه : Supplément aux mémoires de Bailly ، ونشر لأول مرة فى (١٨٠٤) على أنه من وضع أحد أعضاء الجمعية التأسيسية فى باريس بدون تحديد الإسم ؛ وعندما أعيد طبع مذكرات « بايى » فى (١٨٢٢) اعتبر هذا اللحق من تأليف « بايى » نفسه . إلا أن الدكتور فلنج أستاذ التاريخ الأوربى بجامعة نبراسكا فى أمريكا استطاع أن يكشف مع بعض تلاميذه فى الجامعة عن حقيقة هذا اللحق[1] ؛ ووجدوا بالمقارنة الوافية أن فقراته شديدة القرب فى اللغة والأسلوب والمعلومات مما ورد فى بعض الجرائد التى كانت تصدر فى باريس فى (١٧٨٩)[2] ، مع تغيير ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم فى بعض الأحيان ، لكى يتفق ذلك مع مذكرات « بايى » الأصلية . ولو أن جامع هذا الجزء قد أشار إلى المواضع التى استقى منها مادته ، لكان ذلك عملاً نافعاً لمن لا يستطيع الوصول إلى إعداد تلك الصحف النادرة . وهذا الجزء يعتبر مثالاً لكيفية الانتحال ، وتحذيراً للباحثين بعدم قبول أى مصدر بثقة عمياء

والملكة « مارى أنطوانيت » من الشخصيات التاريخية التى دُست عليها رسائل لم تكتبها ، وهذا مما يجعل عمل المؤرخ صعباً . ولقد نشرت مجموعات من رسائلها تحتوى على الصحيح والمزيف منها ؛ ولجأ المزيفون إلى الاقتباس من رسائلها الصحيحة وتقليدها من حيث الخط والأسلوب . ولقد نشرت مجموعة من هذه الرسائل فى باريس فى (١٨٥٨) ، وتحتوى على رسالة لم تنشر من قبل بتاريخ ٢٠ يونيو ١٧٨٩ ، تبين أن مارى أنطوانيت اعتقدت أن

(١) Fling : op. cit. pp. 52—56

(٢) هذه الصحف هي :

Le Point du Jour
Courrier de Provence
Les Révolutions de Paris

١٧ ، ٢٦

أسلم سياسة ينبغى أن يتبعها لويس السادس عشر ، هى الانضمام إلى الشعب . فهل هذه الرسالة صحيحة أم مزيفة ؟ ولم يمكن العثور على أصلها المخطوط ، وهذا مما يجعل البحث صعباً . وبالدراسة المقارنة نجد أن مارى أنطوانيت كانت ميولها ضد الشعب ، وهذا يميل بالباحث إلى الشك فى صحة هذه الرسالة . إلا أنه من الجائز أن مارى انطوانيت كان لها هذا الرأى المخالف لما عُرف عنها ، إنقاذاً للموقف ؛ وهكذا لا يصل المؤرخ أحياناً إلى رأى قاطع فى صحة بعض الأصول التاريخية

وأخيراً نعرض لمثال درسه الدكتور أسد رستم . فإنه عند ما ثارت مشكلة البراق بين المسلمين واليهود ، وقدمت اللجنة الدولية لدرسها ، ظهرت وثيقة فى مصلحة المسلمين . ولكن اليهود عارضوا فى صحة هذه الوثيقة ، فعرضت على الدكتور رستم لفحصها من الوجهة الفنية التاريخية ، فوجد أنها عبارة عن رسالة صادرة من محمد شريف باشا حكمدار بر الشام[1] فى عهد الحكومة المصرية إلى السيد أحمد أغا دزدار[2] متسلم القدس[3] بتاريخ ٢٤ ربيع أول ١٢٥٦ هـ (٢٧ إيار ١٨٤٠) يخبره فيها بصدور إرادة شريفة خديوية من محمد على باشا بمنع اليهود من تبليط البراق مع إعطائهم حق الزيارة « على الوجه القديم[4] » . وفحص الدكتور رستم هذه الوثيقة بوسائل النقد الظاهرى والباطنى ، فوجد أن الوثيقة مكتوبة على ورق صكوكى قديم تركيبه الكيماوى وأليافه من نوع أوراق الحكومة المصرية فى مصر والشام فى ذلك العهد ؛ والمداد الذى دونت به هو مداد استانبولى . وأثبت التحليل الكيماوى والفحص بالمجهر أنه مزيج من الكاربون التجارى والصمغ والماء ؛ وأثبت المجهر أيضاً من أثر القلم على الورق أنها كتبت بقلم قصبى مما كان شائع الاستعمال فى ذلك العصر . وكان الخط هو السائد فى دواوين مصر والشام . وفاتحة الرسالة : « افتخار الأماجد الكرام ذوى الاحترام . . . » وخاتمتها : « لكى بوصوله تبادروا لإجراء العمل بمقتضاها . . . » تتفق مع أسلوب عهد محمد على . ثم عدم مراعاة قواعد اللغة

(١) أى حاكم الشام من قبل الحكومة المصرية

(٢) دزدار من أصل فارسى استعمل فى التركية بمعنى قائد قلعة . ولعل أحمد أغا دزدار يرجع إلى أسرة حكمت القلاع

(٣) متسلم أى ملتزم الأموال والمشرف على الأمن وقواعد الضبط والربط

(٤) نص هذه الوثيقة فى كتاب الدكتور رستم من مصطلح التاريخ ص (١٧ — ١٨)

الوعاظ والخطباء

للأستاذ علي الطنطاوي

تواردت الخواطر والأقلام (في أجزاء الرسالة الأخيرة) على نقد أساليب الوعاظ في الدعوة إلى الله، فساء ذلك بعض الواعظين عندنا، ولو فكروا في مغزاه وما يلزم منه لسرهم، ولعلموا أنه لولا الاعتراف بخطر الوعظ وأهله، ومنزلتهم من الأمة، وعلو قدرهم عند العامة، ما كتب في (الرسالة) عنهم، ولا اشتغل الكتاب بنقدهم. ثم إن أولى ما ينبغي أن يتحلى به الواعظ أن يبدأ بنفسه فيعظها، وأن يخلص قوله لله وعمله، وأن يفرغ من شهوات نفسه، فلا تملكه شهوة الشهرة والجاه، ولا شهوة الغنى ولا شهوة النساء، وأن يكون في فعله أوعظ منه في قوله، فلا يأمر الناس بالزهد ثم يخالفهم إلى ما زهدهم فيه فيزاحم المتكالبين عليه، ولا يتظاهر بالدين ابتغاء الدنيا وتوسلاً إليها، فيجمع من حوله العاملين على الكسب الحلال، والجادين في جمع المال من حله، ليأخذ من أموالهم ما يتعالى به عليهم، وليذوق لذائذ العيش من عطاياهم، وليسلبهم فوق ذلك حريتهم وعقولهم وكرامة أنفسهم عليهم، فيصرفهم في مآربه، ويسيرهم حيثما شاء، ويذلهم بين يديه ليستكبر عليهم، ويجعل الدين وسيلة إلى ذلك، فيجعل طاعة نفسه من طاعة الله، بل ربما جعل نصيبها من هذا الشرك أكبر، والعياذ بالله من ذلك. ولقد حدثني من أقطع بصدقه أنه سمع مرة واعظاً من هؤلاء (يقص) على تلاميذه قصة مريد سمع شيخه يقول: يا ألله، ثم يمشي (زعم القاص) على وجه الماء الجاري، فسأله أن يتبعه فقال له الشيخ: قل يا شيخي فلان (يعني الشيخ نفسه) ثم اتبعني فإنك تمشي مثلي. ففعل المريد ذلك، وتابعه أياماً، ثم خطر له (يقول الواعظ) أن يقول: (يا ألله)، مكان قوله: (يا شيخي) فقالها فغرق في الماء، ومات ...

فهل يشك مسلم في أن هذا الوعظ مخالف للاسلام مباين له؟ وهل يغضب الواعظ العالم الصادق أن ينتقد الواعظ الجاهل المُخَشْرِق الكذاب؟ أو ليس من دأب الواعظ الصادق أن يتقبل النصيحة ويشكر عليها ويعمل بها؟ وأن يتخلص من شرور نفسه قبل أن يتصدر للوعظ والإرشاد،

العربية ووجود ألفاظ أعجمية الشيء الذي كان منتشراً في مصر والشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر. ثم تدرع الدكتور رستم بأدلة أخرى، فتأكد من محفوظات عابدين أن شريف باشا كان حاكماً عاماً على الشام من أوائل ١٢٤٨ هـ إلى أواخر ١٢٥٦ هـ. وعرف من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس أن أحمد أغا دزدار كان قائماً بأعمال المتسلمية في القدس في ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ. وتثبت أيضاً من أن محمد شريف باشا كان يسيطر على جميع حكام مقاطعات الشام ومن بينهم متسلم القدس أحمد أغا دزدار، ومن أنه كان يتلقى الأوامر من محمد علي باشا وإبراهيم باشا لكي يبلغها للجهات المختصة. ووجد الدكتور رستم أيضاً أن محتويات هذه الوثيقة تتفق مع المعلومات المعروفة عن علاقة اليهود بالبراق وموقف المسلمين منهم من ناحية إباحة اليهود زيارته وتساهل حكومة محمد علي الذي جعلهم يتطلعون للحصول على الإذن بتبليط البراق. وانتهى بحث الدكتور أسد رستم بإثبات صحة هذه الوثيقة من الوجهة الفنية التاريخية سواء من ناحية الورق والحبر والقلم وعادات المراسلة واللغة والأسلوب، أو من ناحية شخص المرسل والمرسل إليه، أو من ناحية مطابقة واتفاق معلوماتها مع الظروف التاريخية(١)

وهذه أمثلة عملية تبين أهمية وطريقة نقد الأصول التاريخية من ناحية إثبات صحتها وأصالتها وخلوها من الدس والتزوير والانتحال(٢)؛ وبغير ذلك لا يستطيع المؤرخ أن يعمل لأنه إذا بنى أبحاثه على الأصول المزورة خرج بنتائج بعيدة عن الحقيقة ومخالفة للواقع التاريخي. وسوف نبحث في المقالات التالية نقد الأصول من نواح أخرى

(يتلى) حسن عثمان

---

(١) أسد رستم: مصطلح التاريخ: ص ١٦ — ٢٧

(٢) لم أذكر شيئاً من الأمثلة العملية التي قمت بها وإني أرجىء ذلك حتى أنشر الوثائق التي تحت يدي

حتى يكون الإسلام هو الذى يتكلم على لسانه ، وحتى يتوهم السامعون أن ملكا هو الذى يعظهم ، أو جسداً إنسانياً ضم روح ملك من الملائكة قد ارتفع عن شهوات الأرض ليتصل بكمالات السماء ، وأنه لا يزهدهم فى دنياهم ليحوزها من دونهم ؛ فإن أنسوا منه غير ذلك زهدوا فيه هو وفى وعظه ...

كان فى مسجد من مساجد دمشق خطيب جهير الصوت ، طلق اللسان ، متزل مستور ، يعتقد الناس إخلاصه ودينه وتخطّيه أهواء نفسه ماشياً قدُماً على صراطه المستقيم ، صعد المنبر جمعة من الجمع ، فاستهل خطبة بآية من القرآن فيها وعيد للكافرين شديد ، ومضى من بعدها يبرق ويرعد ، ويسوق الجمل آخذاً بعضها برقاب بعض ، وكلها من مادة (كفر يكفر ...) حتى إذا ظن أنه أقنع وأشبع ، وملأ نفوس السامعين سخطاً وغضباً ، عمد إلى التصريح بعد التلويح ، فإذا الذى انصبت عليه هذه الحمم ، ونالته رجوم الشياطين ، (رجل تجرأ على دين الله ، فتكلم فى الداعين إليه ، والدالين عليه ، ومن رضى عنهم الله وعقلاء خلقه : خطباء المساجد) . فلما قضيت الصلاة استقرى الناس الخبر فإذا هو صاحب جريدة كتب مقالاً معتدلاً فى الدعوة إلى إصلاح الخطب المنبرية ، فبعث الخطيب بمقالة يرد بها عليه فلم ينشرها وإنما أشار إليها ، فكان جزاؤه أن تكون الخطبة كلها فى ذمه وتكفيره . فانصرف الناس من يومئذ عما كانوا يعتقدون فى الخطيب ولم يعد يبلغ وعظه ذلك المبلغ من نفوسهم ، وجعلوا يرون فيه خطيباً له (نفس) ، وهيهات ينفع واعظ أو خطيب له (نفس) ...

فقالوا أنبئونى من الذى جعل المنبر ملكاً لهذا الخطيب ، يتصرف فيه تصرفه بثوبه ودابّته ، ويجعله سلماً له إلى شهرته وشهوته ، وهذا المنبر إرث رسول الله ، والخطيب خليفته فى الدعوة إلى دين الله واطّراح النفس والهوى ؟ ألم يرو الرواة أن علياً أمير المؤمنين رضى الله عنه كان يتبع مشركاً (فى المعركة) ليقتله ، فلما أيس المشرك من الحياة تلفت إلى علىّ فبصق على وجهه ، فكف عنه على، فقيل له، فقال رضى الله عنه : كنت أنوى قتله لله وحده، فلما بصق على خفت أن يكون قد داخلنى غيظ منه، فخشيت أن يكون قتليه انتصاراً لنفسى، فلذلك كففت عنه . أليس فى هذا الخبر (وإن لم يأت عن الثقات) عبرة وأسوة للواعظين ؟

وكيف أستطيع الاتعاظ بالخطيب الذى جاء فى خطبته مرة بحديث موضوع ، فلما انتهت الصلاة وتفرق الناس أقبل عليه شاب من المشتغلين بالحديث والمنقطعين إليه فذكره بأن ذلك الحديث موضوع لا أصل له ، فما كان منه إلا أن رجع من الجمعة المقبلة ، فجعل خطبته فى هذا الشاب وأصحابه (الوهابيين أعداء الرسول . . .) وأثار عليهم العامة حتى نالهم شر وأذى . فأين مكان الإخلاص من نفس هذا الخطيب ؟

إن أول شرط للواعظ أو الخطيب أن يكون مخلصاً فى وعظه لله ؛ والشرط الثانى أن يكون عالماً بالعربية ، عارفاً بالتفسير والحديث روايته ودرايته ، والفقه أصوله وفروعه ، وإلا كان وبالاً على الدين وأهله . ولقد أدركت والله من العامة من كان يكور العمامة ، ويطيل اللحية ، ثم يقعد للتدريس فى مسجد دمشق الجامع فيقول ما شاء له الجهل والهوى ويجعله ديناً ، والمفتى والقاضى والعلماء يمرون عليه أو يعلمون به فلا ينكرون عليه ، ولو اعتدى هذا الرجل على جبة أحدهم لأقام عليه الدنيا . أفكان الدين أهون على أحدهم من جبته ؟ وأدركت عامياً آخر ذكياً خدع طائفة من أذكياء البلد وعلمائه فاعتقدوا به ، وتأدبوا بين يديه ، وأخذوا عنه تفسير الآثار . وأعجب من هذا رجل يدعى النبوة يقيم الآن فى غوطة دمشق ، وقد آمن به أكثر فلاحى قرية (حرستا) . ولقد خبرنى من شهد صلاته بأصحابه أنهم يقهقهون ويكركرون كلما جاءت آية نعيم ، ويتصايحون مستبشرين ويهنئ بعضهم بعضاً ، وأنهم يبكون منتحبين مولولين كلما سمعوا فى الصلاة آية عذاب ؛ وربما (أخذ بعضهم الحال) فقفز فى الصلاة أو صاح أو التبط بالأرض . ولهذا المتنبي أو (المتمهدى) ضريبة دائمة على أصحابه يؤدونها إليه باسم الزكاة فيشترى بها العقارات والحقول ...

والشرط الثالث حسن الأسلوب في الوعظ ، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وابتغاء طريق اللين واللطف . وللواعظين أسوة فى ذلك بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهم من سيرته قدوة صالحة ، فأين هم عنها ؟ وما لأكثر من عرفنا منهم لا يعرفون إلا طريق العنف والقسوة الذى يبعد الناس عن الدين ، ويغلظ قلوبهم عليه ، وينفرهم منه . فلا يرون فى مجالسهم

شاباً من تلاميذ المدارس مثلاً إلا جعلوا الموضوع فى تفسيق من يحلق لحيته ، ومن يتشبه بالنساء ، وأمثال ذلك ، حتى تأ كل هذا الشاب الأنظار ، فيغرق فى عرقه خجلاً ؛ ثم لا يعود إلى المسجد أبداً ؛ ولو أنهم حاسنوه وجاملوه لكان من المتقين .

حضر درس الشيخ « بدر الدين » رحمه الله تعالى شاب حليق حاسر من شبان (المودة) ، وكان الشيخ (على عادته) مطرقاً . فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين : « سيدى ، ما حكم الشبان الذين يتخنثون ويتشبهون بالنساء ويتزيون بزى الكفار » . فأدرك الشيخ بذكائه النادر أن فى المجلس غريباً ، فرفع رأسه فلمح الشاب ، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه ، وقال للسائل مؤنباً بأسلوبه الناعم : « يابا ... هذا يتبارك به » يعنى أن شاباً مثله يطلب العلم ويؤم مجالسه ويستهدى الطريق إلى الله ، أهل لأن يتبرك به أمثال ذلك الثقيل الذين (قطعوا الطريق) إلى الله بثقلهم وغباوة قلوبهم

والشرط الرابع هو أن يعلم الواعظون أنه ليس فى الإسلام طبقة هى أولى بالله من طبقة ، وليس بين العبد وربه وسيط ، وأن الإسلام ليس فيه (رجال إكليروس) ، فإذا علموا ذلك اقتصدوا فى تكفير الناس لأتفه الأسباب ، وراجعوا الآثار الواردة ليعلموا حقيقة الكفر والإيمان ، فلا يرمون بالكفر كل من خالفهم فى رأى أو ناقشهم فى مسألة قد يكون لها وجوه ، ولا يصدرون مثل الكتاب الذى أصدره منذ بضع سنين عالم معروف فى دمشق — كان أصدر قبله بأكثر من عشر سنين كتاباً آخر — كفر فيهما كل من يقول بحركة الأرض ، وكفر الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا ؛ ورد أشنع الرد على ابن حزم والشيخ محمد بخيت المطيعى ، رحم الله الجميع . وأخذ بقوله بعض خطباء المساجد فكفروا على المنابر من يقول إن الأرض دائرة حول الشمس . ولا نسمع أحداً يجعل قيامك للضيف يدخل عليك كالسجود له سواء حكمهما ، لأن كلا منهما (على دعواه) من أركان الصلاة استويا فى ذلك . ونسى أن القعود أيضاً من أركان الصلاة ، أفيحرم قعودك بين يدى صديقك أو أستاذك ؟ ؟

* * *

والخطابة يوم الجمعة من أكبر أبواب الوعظ ، فإذا صلحت صلح بصلاحها فساد الأمة ، وإن فسدت أفسدت . فمتى يتم تنظيم الخطابة ، بحيث يختار لها الكفو العالم ويعدل عن طريق الوراثة فيها ، فلا تنتقل بعد الخطيب إلى ابنه الصغير الذى لا يُدرى ما يكون منشؤه وصباه ، ويقام له وكيل رسمى ؛ بل يعلن عن الخطابة الخالية ، ويجعل بين الطالبين سباق وامتحان ، ثم ينتقى أقدرهم عليها وأصلحهم لها . ولو كانت وراثة لورثها أبو بكر ابنه ولدفعها عمر إلى ولده . فمن أين جئتم بهذه القاعدة الواهية ؟

فإذا تم الاختيار على ما ترتضى المصلحة الاسلامية ، أخذ الخطيب بنوع رقابة أو إشراف يمسكه أن يحيد فيختار من الموضوعات ما يؤذى المسلمين ، أو يكون فيه منفعة للخطيب شخصية ، ويجعله ينتقى أقرب الموضوعات لأحداث الأسبوع ، فيبين فيها حكم الله ، ويأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر ، بشرط أن يقوم بهذه الرقابة جماعة العلماء أنفسهم ، وألا تمنع إلا ما يخالف الإسلام ومصلحة المسلمين ، وألا تمس حرية الخطيب فيما عداذلك ، وإذا تم الحصول على هذه الثمرات من غير رقابة أصلاً فذلك هو الأولى ، وهو ما عليه المسلمون من قديم الزمان

* * *

هذا وإن الموضوع خطير ، ومجال القول فيه ذو سعة ، والواعظون العالمون الصادقون أحق الناس بالكتابة فيه ، فإن صاحب الدار أدرى بما فيها ، وأحسن شىء أن يعطى القوس باريها ، وإننا نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإخلاص

على الطنطاوى

مجموعات الرسالة

شخصيات تاريخية

٣ - تيموستوكل

للأستاذ محمد الشحات أيوب
مدرس التاريخ القديم بكلية الآداب

(تابع)

تحتم إذن وضع خطة جديدة لمجابهة هذا الموقف الجديد ، فمن لليونان بقائد ماهر يستطيع وضع هذه الخطة ؟ لم يبحث اليونان كثيراً ، إنما نظروا إلى صفوفهم فوجدوه بينهم يحثهم على أن يتراجموا ويتماسكوا ، فلما رأوه وكله ثقة واطمئنان إلى نتيجة النزاع وهي النصر الحاسم سرت الثقة بينهم وتجمدوا في أماكنهم كالثلج الذي وقع على الأرض لا يريد أن يبرحها وقد تركوا أمورهم إليه وأسلسوا له القياد فوضع هذه الخطة التي كانت أساساً لما أحرزه اليونان من نصر عظيم في موقعة سلامين الشهيرة . وأظنك أيها القارىء بعد هذا لم يخف عليك أن هذا القائد صاحب هذه الخطة إنما هو بطلنا تيموستوكل العامل الرئيسي في إحراز النصر والاحتفاظ باستقلال اليونان كاملا

اقتضت هذه الخطة أن يهجر الأثينيون مدينتهم إلى جزيرة سلامين القريبة من أرض وطنهم وأن يقف الأسطول اليوناني في المضيق البحري الذي يفصل بين أثينا وسلامين ، وهو مكان ضيق جداً ، إلى شماله تقع سواحل أتيكا ، وإلى جنوبه وغربه تقع سواحل سلامين ، وقد اختار تيموستوكل هـذا المكان لضيقه لأنه عقد العزم على أن تكون الموقعة الفاصلة في البحر ، وشجعه على ذلك هذا النجاح الذي أحرزه في الموقعة البحرية السابقة موقعة الأرتيميزيون ، وفي هـذا المكان الضيق تنعدم المزات الناشئة عن كثرة العدد وعما يمكن أن يقوم به العدو من حركات التفاف وتطويق بالنسبة لأسطوله الزاخر بالسفن . واختار هـذا المكان أيضاً لقربه من جزيرة سلامين وإليها هاجرت الأسر الأثينية ، وهي بإقامتها في الجزيرة بالقرب من الأسطول لاشك خير مشجع لكل أثيني بل حافز لكل يوناني على الاستماتة والاستبسال في سبيل الدفاع عن أرض الوطن واستقلال البلاد ؛ ونحن نعلم ما كان للأرض عند اليونان من حرمة وقداسة فهي رمز لكيانهم في الحياة وفي الممات

لم ينل تيموستوكل بسهولة هـذا القرار القاضي بإلزام الأسطول اليوناني ساحل جزيرة سلامين الشمالي وإنما ناله بعد كبير عناء ، لأن اليونان كانوا مترددين جد التردد في التزام هذا المكان . وكان القائد الأعلى وهو إوريبياد متردداً هو الآخر ، بلغ تردده حداً عظيما جداً لأنه كان غير واثق من النصر من ناحية ، ولأنه كان يريد التراجع نحو الجنوب للدفاع عن بلاده وهي شبه جزيرة البيلوبونيز من ناحية أخرى . وقد عقد القواد ثلاثة مجالس حربية ظهر فيها هذا التردد بأجلى معانيه ، لذلك لم يكن أمام تيموستوكل إلا أن يسلك سبيل التهديد والوعيد ، فهدد بترحيل العائلات الأثينية إلى بلدة سيريس في جنوب شبه جزيرة إيطاليا واتخاذها مقاماً للأثينيين جميعاً . وهم بهذه الهجرة يتركون الإسبرطيين وبقية اليونان وحدهم ، فلم يستطع القائد الإسبرطي بعد هذا إلا أن يسلم بوجهة نظر تيموستوكل وهو صاغر للنصيحة ومستسلم لهـذا الإرشاد ، آملا انتهاز فرصة مقبلة لتنفيذ رأيه القاضي بالتقهقر والتراجع ، وهو قد رأى هذه الفرصة قد أقبلت حينما علم بحركات الأعداء وقرب إقدامهم على الهجوم ، فعزم على التراجع نحو الجنوب من جديد .
وتفسير ذلك أن أجزرسيس عاهل الفرس جمع قواده في فالير واستشارهم فيما يجب أن يتخذوه من أمر لأنفسهم في هذه المعركة ، فأشاروا كلهم بضرورة الهجوم ما عدا الملكة أرتيميز ملكة الدوريين في جنوب غرب آسيا الصغرى ؛ وحجتهم في ذلك أن المكان ضيق فهم يستطيعون إذن القضاء على أسطول اليونان إذا ما هاجموه هجوماً عنيفاً ، وقد غاب عنهم أن المكان ضيق لا يبيح لهم القيام بحركات تطويق أو التفاف أو انقضاض ، وإنما يحتم عليهم أن ينبسطوا انبساطاً ، وبذلك تنعدم الفائدة عن التجمع والتركز فيسهل لسفن الإغريق الصغيرة الحجم أن تتسلط على سفنهم الكبيرة فتحصرها في هذا المكان الضيق وتصليها ناراً حامية

ولكن من أين لتيموستوكل هذا الهجوم وهو يكاد يكون الفرصة الوحيدة التي تجبر اليونان على التزام أماكنهم وإجبارهم على القتال ؟ لم يجد تيموستوكل أمامه إلا المكر والخداع ، وذلك

بأن يحث الفرس على المضى فى حركاتهم الهجومية ، بل والإسراع فيها ، فأرسل إلى ملكهم رجلاً من أتباعه يثق فيه كل الثقة - هو الخادم سيكينوس - لإبلاغه أن اليونان يحاولون الهرب من المضيق نحو الجنوب ، ولإيقافه أيضاً على حالة اليونان وتصويرها على أنها تنم عن انقسام فى الرأى وتشعب فى المصالح واختلاف فى الرغبات ؛ فإذا أراد القضاء التام على أسطول اليونان فليس له إلا أن يقوم بهجومه هذا ، بل ويسرع فيه ؛ وقد اقتنع ملك الفرس بهذا الرأى ، ووقع فى الفخ وأسرع فى الهجوم ، فاضطر اليونان إلى أن يلزموا أماكنهم ولا يبرحوها ، وبذلك نجح تيموستوكل فى حمل اليونان على البقاء فى مضيق سلامين والقتال فيه !

ثم التحم أسطول الفرس بأسطول اليونان ، وانتصر اليونان انتصاراً عظيما كان له دوى هائل فى البلاد المتحضرة حينذاك ، وليس لنا أن نتحدث هنا عن تفاصيل هذه المعركة البحرية الحاسمة التى كان لها شأن وأى شأن فى تقرير مصير بلاد اليونان لمدة قرنين على أقل تقدير ، وإنما لنا أن نقرر هنا أن الفخر فى إحراز هذا النصر الحاسم إنما يرجع أولاً وقبل كل شىء إلى تيموستوكل القائد الأثينى العظيم . من أجل هذا ، لا نعجب إذا علمنا أن جائزة عظيمة منحت له لجسارته وشجاعته وحسن توجيهه للمعركة

وهذه المعركة تعد فى نظرنا أهم عمل أداه تيموستوكل فى حياته فهى من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، إذ على إثرها زال الخطر الفارسى عن بلاد اليونان أو كاد ؛ وقد كانت هزيمة الفرس شنيعة جداً ، وبقدر ما كانت هذه الهزيمة ساحقة ، بقدر ما كان نصر اليونان عظيما وحاسماً . ولقد اضطر اجزرسيس بعد ذلك إلى ترك بلاد اليونان ، ورجع إلى بلاده فى غير إبطاء ولا تمهل ، لأنه كان يخشى عواقب هذه المعركة ، ومر بمضيق الهيلليسبونت ، وهناك رأى الجسور التى كان قد بناها من قبل قد اقتلعتها الزوابع والأعاصير ، والشعوب التى كان قد أخضعها وهو فى طريقه إلى أثينا قد قامت بالثورة ضد سلطانه ونفوذه ؛ فلم يجد بداً من أن يترك ببلاد اليونان جزءاً من جيشه للاحتفاظ بسلطان الفرس على هذه البلاد ، ولانتهاز فرصة ربما تسنح فى المستقبل للتغلب على اليونان

أما اليونان ، فقد انقسموا على أنفسهم بعد زوال الخطر عنهم ، فاعتقد الاسبرطيون كما سبق أن اعتقدوا من قبل هم وغيرهم من بقية اليونان بعد موقعة ماراتون ، أن معركة سلامين نهائية ، لا يجسر الفرس أن يأتوا بعدها إلى بلادهم لغزوها . ورأى الأثينيون غير هذا الرأى ، إذ كانوا أكثر من الإسبرطيين حرصاً وتبصراً بعواقب الأمور ، فاعتقدوا أن الفرس لا شك سيعيدون الكرة من جديد ، وقد كانوا على حق فى ذلك ، لأن الفرس لا زالوا ببلاد اليونان يأتمرون بإمرة قائدهم ماردونيوس الذى قادهم فى العام التالى إلى موقعة « بلاتية » ، وفيها التحموا بالجيش اليونانى وعلى رأسه الإسبرطى بوزانياس ، وكان أن انتصر اليونان من جديد ، وكان الانتصار عظيما أيضاً

ولقد أسهبنا فى الحديث عن مقدمات معركة سلامين لأن النصر فيها راجع إلى تيموستوكل قبل أن يرجع إلى أى شخص آخر ، ولم نخض فى تفصيلاتها الحربية التى لها مجال آخر غير هذا المجال وكنا مضطرين اضطراراً إلى هذا الإسهاب لأن هذه المعركة من أهم المعارك التى أثرت على عقلية اليونان ، ذلك أن اليونان لضعف أمرهم ولصغر شأنهم لم يؤملوا أن يحرزوا هذا النصر الحاسم ضد أكبر دولة قوية فى هذا العصر وهى دولة الفرس لذلك كان هذا الانتصار انقلاباً عظيما فى بلاد اليونان ووضعها بالنسبة للدول الأخرى ، من أجل هذا قويت نشوة الفرح والسرور عندهم وزادت ثقتهم بأنفسهم ؛ وكان لهذه المعركة أيضاً دوى عظيم وتأثير كبير على العقلية اليونانية إذ ألهمت أحد كبار الشعراء وهو « إشيل » فجعلته يكتب ، وقد كان شاهد عيان المعركة ، تراجيدية رائعة هى تراجيدية الفرس فى أسلوب قوى فتان رفع من شأن اليونان وقوى الثقة بأنفسهم بقدر ما وضع من أمر الفرس وعاهلهم « أجرزسيس » فزادت حماسة اليونان وقوى شعورهم بأنهم أصبحوا دولة جديدة سيكون لها شأن خطير فى التاريخ . لذلك كانت هذه المعركة بداية لعصر جديد هو عصر ازدهار الحضارة الإغريقية وفيه وصلت الآداب اليونانية إلى القمة وتطورت العلوم والفنون ، بل ونظم الحكم التى حققت ما ترنو إلى تحقيقه الحضارة الأوربية الحديثة من حرية ومساواة ، فكانت الديمقراطية الأثينية فى عصر بركليس وكانت الآداب اليونانية فى عهد أشيل وسوفوكليس .

واعتزت أثينا بعد ذلك بهذا النصر ، فاعتبرها اليونان

صاحبة الفضل فى إبعاد الخطر الفارسى عنهم ، فالتفت حولها الدويلات اليونانية الصغيرة وعلى الأخص البحرية منها التى توجد فى بحر إيجه وطلبت إليها أن تدافع عنها ضد غزوات الفرس وتهديداتهم ، فكانت هذه الحركة بداية لتكوين حلف ديلوس الشهير ، وهو أساس الإمبراطورية الأثينية فى القرن الخامس قبل الميلاد .

ونحن لا يهمنا بعد أن بينا فضل تيمستوكل على هذا النحو ، أن يحاول هيرودوت أبو التاريخ الغض من شأن تيموستوكل والاقلال من أمره ، فكل ما أثاره حوله من ريبة وشكوك لا نثق فيه مطلقاً . وقد عرفت أيها القارئ الكريم من المقالة الأولى أن هيرودوت كان شديد التحامل على بطلنا هذا حتى قسا عليه قسوة شديدة . والغريب أن هيرودوت يتهم تيموستوكل بالخيانة العظمى نحو قومه ، ويحاول أن يقنعنا بأنه أرسل إلى ملك الفرس من يخبره بأنه لن يتعقبه هو وأسطوله ، بل على العكس من ذلك سيحتفظ بالأسطول اليونانى فى جزيرة سلامين ، وليس هناك من شك فى أن كلام هيرودوت مناقض للواقع . صحيح أن الأسطول اليونانى لم يتعقب الأسطول الفارسى أثر الموقعة مباشرة . وسبب هذا راجع إلى أن اليونان كانوا فى غفوة هى غفوة الانتصار ، ذلك أن الانتصار كان عظيما جداً بحيث أدخل على قلوبهم الفرح والسرور فلم يصدقوا أنفسهم أنهم أحرزوا هذا النصر الحاسم ، ولكنهم بعد أن أفاقوا من هذه الغفوة تعقبوا الأسطول الفارسى حتى جزيرة أندروس فوجدوه قد لاذ بالفرار فلم يعد بإمكانهم الالتحام به لإبادته والقضاء عليه ؛ ونحن نرد هذا الاتهام أيضاً لأن أعمال تيموستوكل خير شاهد على أنه كان يخدم وطنه بصدق وإخلاص ، فقد كان هو الوحيد الذى عمل على أن يلزم الأسطول اليونانى سواحل جزيرة سلامين للدفاع عن الأسر اليونانية المكدسة فى هذه الجزيرة وعن أرض الوطن المقدسة ، فكيف يجوز لعقولنا إذن أن تصدق ، إن كان لها منطق سليم تفكر به أن بطلاً قومياً هذا شأنه فى العمل على القضاء على عدوه بكل الطرق والوسائل يخون قضية وطنه وهو لم يدخر فى سبيل ذلك وسيلة إلا اتخذها كالمكر والخداع حينما أوقع ملك الفرس فى فخه فأوهمه أن اليونان ينقسمون على أنفسهم وعلى وشك الهروب من المكان الضيق الذى كانوا به عند سلامين بعد ما علموا من بدء تحرك الفرس وإقدامهم على الهجوم ، مما حفز عاهل الفرس على الإسراع فى هجومه ، وكان هذا الإسراع من أسباب فشله ، ومن العوامل التى ساعدت تيموستوكل واليونان على إحراز هذا النصر الحاسم

ليس هناك من شك فى أن تيموستوكل بطل يونانى عظيم خدم القضية اليونانية بكل صدق وإخلاص ؛ وهو وإن كان قد تخلى عن هذه القضية القومية فإن ذلك كان بعد موقعة سلامين وهو لم يلتجئ إلى هذا إلا بعد خطوات ، إذ الواقع أن سياسته تطورت جد التطور ، فبعد أن كان يأخذ صف اليونان ويدافع عنهم بشدة ، نجده يسير رويداً رويداً نحو جانب الفرس حتى يصبح من أتباعهم والخاضعين لهم والقائمين بخدمة سلطانهم ونفوذهم ، وأمر هذا التطور عجيب له قصة شائقة سنعرضها عليك أيها القارئ الكريم فى مقالة مقبلة إن شاء الله .

محمد الشحات أيوب

من كتاب « البحث عن المستقبل »

أمبراطورية ابن السعود

للأستاذ روم لاندو

بقلم الأستاذ حسن السلماني

طيف ملك

المفروض فى السفارات الأجنبية والمفوضيات السياسية أنها تنقل البلاد التى تمثلها إلى قلب عاصمة الإنجليز . فمن (بلجريف سكوير) تفوح روائح سيام ، ومن (بورتلند بليس) تهب نسائم شيلى . ولكن مما يؤسف له أن أغلب هذه السفارات تستبدل بعادات بلادها عادات الأقطار التى أرسلت إليها ، وهذا لعمرى نقص كبير فى التمثيل . أما فى المفوضية العربية بلندن فلا تجد مظاهر الحياة الأوربية متضماً لها

لقد تعرفت بالشيخ حافظ وهبة وزير المملكة السعودية المفوض بأحد المؤتمرات التى عقدت بلندن والتى اشتركنا سوية بها . ومعرفتنا هذه أدت إلى توحيد العلاقات الودية بيننا فزالت الحجب وصرنا صديقين حميمين

ولم تكن البساطة الظاهرة فى مقام الشيخ حافظ ولا النكهة الطيبة فى القهوة العربية التى يكثر تقديمها لزائريه مما جعلنى أكثر التردد على المفوضية العربية ، وإنما شوقى لزيارة المملكة العربية السعودية هو الذى كان يدعونى إلى ذلك . والحقيقة أن طيف ابن السعود ملك البادية المخيم على تلك المفوضية كان يجذبنى دائماً إلى قاعة الاستقبال فى (إيتون بليس)

وعند ما طلبت التأشير على جواز سفرى أفهمت أن أمر ذلك بيد جلالة الملك وحده . وليس للوزارة الخارجية أو المفوضيات إلا تقديم طلبات الراغبين بزيارة البلاد له ، وهو وحده الذى يجيز لهم الدخول للمملكة . وجلالته يسمح لمن يشاء ويرفض من يشاء . ومن حسن حظى أن الشيخ حافظ وهبة كان على أهبة السفر إلى المملكة العربية السعودية فاغتنمت تلك الفرصة ورجوته أن يقدم طلبى بنفسه لجلالة الملك

وبعد عشرة أسابيع من مغادرته البلاد الإنجليزية دعيت إلى المفوضية العربية وأخبرت بموافقة سيد الجزيرة العربية على زيارتى لبلاده

وتتجلى الروح العربية بأجلى مظاهرها فى المفوضية العربية بالقاهرة . فبناء المفوضية من الطراز العربى القديم ، وغرفة السفير بسيطة خالية من الطنافس الأوربية الغالية ، والقائم بشؤون المفوضية يرتدى الملابس العربية البدوية ؛ وإن نظراته الحادة النافذة إلى أعماق قلوب زائريه وسمرة محياه واسوداد لحيته توحى لزائريه صورة من صور البادية وساكنيها

ولا يتحدث السفير لزائريه إلا باللغة العربية ، لا لأنه يعجز عن التكلم بلغة أخرى ، ولكن لأن العرف العربى يحتم عليه ذلك . ويشعر المتحدث إليه لأول وهلة بأن نفسه تتوق لخيل الصحراء ، وتصبو لجمال الرمال ، وتشتاق لخيام البادية ؛ ولولا ما تقتضيه التقاليد لساف ما يحيط به من أثاث أوربى لا يلتئم وطبعه ، ولاستبدل به الفراش العربى الوثير . وعند ما قابلته المرة الأولى ردد فى التأشير على جوازى ، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن أبرق إلى مكة طالباً موافقة جلالة الملك . فلما جاءته الموافقة زاد فى إكرامى واعتبرنى من ضيوف جلالة سيده . وفى زيارتى الأخيرة للمفوضية أقام لى وليمة عربية فاخرة اختتمها بحديثه الشيق عن الدور المهم الذى لعبه لورنس فى الحجاز ، ولم نفترق إلا ونحن صديقان حميمان

جدة

كانت الباخرة التى أقلتنا من السويس إلى جدة باخرة إيطالية صغيرة لم تر منذ أن أنزلت إلى البحر شيئاً من العناية أو الاهتمام . وكأن الخدم الصوماليين اعتادوا الإهمال حتى فيما يرتدون من ملابس بيضاء . وكانت ابتساماتهم الكثيرة وحسن تصرفهم لا تعوض عن رداءة الطعام . ويبدو لى أن الدعاية الإيطالية أغفلت البواخر الصغيرة المخصصة لنقل المسافرين من إيطاليا لجدة فالحبشة . ويعزى سبب ذلك ، حسبما أعتقد ، إلى أن أغلب راكبى تلك البواخر من الإيطاليين أو المصريين أو العرب

وكان من بين المسافرين القلائل شاب فى مقتبل العمر عرفت منه أنه ابن لأحد أغنياء المدينة المنورة قادم من اسطنبول حيث كان يدرس الطب بجامعتها . وكان يرتدى هذا الشاب الملابس الإفرنجية ويتكلم اللغة الإنجليزية والفرنسية ، ويكثر من تدوير جرامافونه الصغير . وفى أحد الأيام دعانى إلى سماع جرامافونه فى حجرته (قمرته) وما كادت رجلاى تتخطيان عتبة تلك الحجرة حتى شعرت بأن جميع التناقضات اجتمعت فى ذلك الشاب ، وأن معالم المدنية الغربية وعالم الطب الحديث لا أثر لها فى تلك الحجرة الصغيرة . فالمقاعد والكراسى ، وحتى قاع الحجرة مغطاة بالرزم وبالصناديق وبالعلب ، وكأن أحواض الغسيل خصصت لحفظ الموز والبرتقال ، والرفوف عملت للطعام ولتعليق اللحم . والويل لمن أراد التنقل فى تلك الحجرة الضيقة ، فإن قدميه لا بد أن تصطدما بقدر أو بآنية ملقاة على الأرض ، أو قد تزلان من أثر قشرة موز أو قطعة من البرتقال ! أليس هذا من التناقضات ؟ أو ليس بغريب أن تجد شاباً يدرس الطب بجامعة اسطنبول يستطيب طهى الطعام بنفسه وأكله على الطريقة العربية وحده ؟

ومن الغريب حقاً أن ذلك الشاب لم يتردد فى تقديمه الخمر والسجاير لمعارفه وهو عليم بأن قانون بلاده يحرم ذلك . إن فى أفعال هذا الشاب يتجلى كرم المسلمين ممتزجاً بالملاذ التى لا يبيحها الدين الاسلامى . وكنت طوال سفرى أسائل نفسى : أكان هذا الشاب مثالاً لشباب بلاده ، أم قدر لى أن ألاق فى المملكة الوهابية ما لاقيته فى مصر ؟

* * *

و (جدة) بلد غريب كأنه مجموعة من البيوت الخالية فى التناسق قذفها اليم إلى شاطئه القفر المغطى بالرمال . فمياه البحر أمامها ، والتلال الجرداء خلفها ، والرمال تغطى الميمنة منها والميسرة . ومما يزيد فى غرابة منظرها اختلاف أشكال أبنيتها : فبعضها مرتفع متعدد الطبقات ، وبعضها واطئ يقتصر على طابق أو طابقين . وجميع هذه الأبنية مطلية بالجير الطفى . والمدينة محاطة بسور قديم يضم تلك « الناطحات » البيضاء . أما أزقتها فضيقة ، وهذا ما يجعل المنازل تبدو أعلى مما هى عليه من ارتفاع .

وتظهر (جدة) للقادم بأبنيتها الطينية العالية كأنها صورة ممسوخة لمدينة (نيويورك) ، ولكن ما يكاد يقترب المسافر من الشاطئ ، حتى تظهر له الشرفات الخشبية التى يدعوها الناس هناك (بالشربيات) ، ويستطيع تمييز النقوش الجبسية المقتبسة من الفن الفارسى أو الطراز التركى التى تزين أبواب المنازل ، والتى لا تعبر عن ذوق أو عن دقة فى الصنعة أو مهارة فى العمل .

ولا يفصل الصحراء عن المدينة إلا سور قديم كثير الأبواب عديد المسالك . وتحتل الأسواق والمقاهى وميادين بيع الحيوانات محلاً وسطاً بين المنازل . أما المفوضيات الأجنبية ، فليست ببعيدة عن الأسواق والمحلات التجارية . ولولا كثرة الذباب وانتشار الغبار وضيق الطرق وقذارتها ، لصح أن يقال : إن (جدة) مدينة جميلة . وتبدو المدينة أثناء الليل — وبالأخص فى الليالى القمرة — أكثر روعة وجمالاً مما هى عليه فى النهار . وإن المتجول فى أزقتها الضيقة ، ليحسب نفسه خلال تلك الليالى النيرة فى عالم غريب أو فى مدينة خيالية ...

الله أكبر . . .

وصلت (جدة) خلال موسم الحج لمكة . وتبعد مكة هذه خمسة وخمسين ميلاً عن جدة مينائها المهم والموضع الذى يضع الحاج ركبه فيه بعد طول السفر ، وبعد ما قاسى من صنوف المشاق ما قاسى . وهى المرسى الذى ترسو فيه البواخر المقلة للحجاج من أقاصى الأرض ومن أدانيها : من جاوة وسوماطرة ، من الهند وزنزبار ، من السودان ومراكش ، من الهند الصينية والصومال .

وقد بلغ عدد الحجاج فى ذلك العام نيفاً ومائة ألف ازدحمت بهم الشوارع ، واكتظت بهم الأسواق ، وضاقت بهم المدينة . وكانوا يمثلون جميع الأجناس البشرية ومختلف ألوان الناس ، ففيهم السيدات الجاويات الرشيقات اللاتى يسترن أجسامهن المستدقة بالسارى الحريرى الجميل ، ويتجولن فى الشوارع والأسواق جنباً لجنب مع أبناء البادية أصحاب النظارات الشزرة والشعور الكثة النيرة ، والأصوات الخشنة العالية ؛ وفيهم

الصينيون بعيونهم اللوزية ، واليابانيون بجفونهم المثقلة ، والنجديون بسيماهم الناطقة بشدتهم وخشونتهم ، والذين سرحوا شعورهم وضمخوها بالطيوب ، وكحلوا عيونهم بالكحل الفاحم ، وبينهم من وضع حول عنقه قلادة مرجانية أو عقداً زجاجياً ، وبينهم من تدلت من بين أصابعه مسبحة كهرمانية طويلة ، وفيهم من تجلبب بالملابس الكثيفة ، ومن ترك جسمه عارياً إلا من قطعة قماش صغيرة تستر ما يجب ستره

* * *

وفى اليوم الذى وصلت فيه (جدة) كان بعض الحجاج فى عودته من مكة ، وبعضهم يتأهب للسفر لزيارة قبر النبى (ص) . ومنذ أن وطئت قدماى أرض الحجاز ، أخذت أسائل نفسى عن العوامل التى توحد بين هذه الأقوام المختلفة خلال أيام الحج . ولكننى لم أقض بينهم بضعة أيام حتى أدركت أن قدسية البيت بمكة وحرمة القبر بالمدينة أقوى العوامل فى التأليف بين قلوب هذا العدد العديد فى المسلمين ، وفى توجيههم وجهة واحدة على ما هم عليه من تباين فى القومية واختلاف فى العنصرية . ومع أنهم لا يتخاطبون فيما بينهم بلغة واحدة ، ولا يتبعون تقاليد متماثلة ، ولا تجمعهم رغبات موحدة ، فإن وحدة إيمانهم خلقت بينهم ألفة ومحبة تعجز عن خلقها أى وحدة سياسية أو مبدأ اقتصادى آخر

وفى جميع زياراتى للحجاز لم أشاهد أو أسمع عن شجار واحد وقع بين أهل تلك البلاد وبين إخوانهم الحجاج ، مع أن جل أولئك الناس كانوا من الذين لا يضعون حداً لمشاكلهم ولاختلافاتهم إلا بالسيف والخنجر . ولا يرجع هذا لشدة بأس الحكومة وقوة شكيمتها فحسب ، بل إلى تغلغل العقيدة فى نفوسهم ، واستقرار الإيمان فى أعماق قلوبهم

ولا نعنى بهذا أن ليس من خلاف بين الطوائف الإسلامية ، ولكن الذى يمضى لزيارة الحجاز أثناء موسم الحج يؤمن بأن فى الدين الإسلامى قوى تؤلف بين معتنقيه أشد وأقوى من تلك التى تفرق بينهم . والذى ينعم النظر ويطيل التأمل فى أولئك الحجاج لا بد أن يشعر بأنهم بمجيئهم إلى هذه الأرض المقدسة قد طهروا أنفسهم من أدران النفعية الداعية لكل خلاف والمسببة لكل تفرقة . وكأن القبلة التى يتجهون إليها طهرت نفوسهم وألانت قلوبهم ، فصيرتها أكثر تسامحاً وأقل قساوة مما كانت عليه قبل أن تطأ أقدامهم تربة الحجاز

ولا أدرى ، أيحق لنا — نحن أبناء الغرب — أن نستمر فى تبجحنا بأن المسيحية تستطيع أن تؤلف بين طوائفنا المتباينة وأقوامنا المتناحرة ، فتضع بذلك أسس الإخاء وتشيد أركان المحبة فى أوربا المسيحية ؟ متى يا ترى نؤمن . وقد كثرت اختلافاتنا فأثارت فى نفوسنا الخيلاء والفخار بأن الدين أشد القوى التى تستطيع الوقوف بوجه ما يهدد كياننا الاجتماعى من أخطار ؟

* * *

يعتقد المسلمون أجمعون أن الحج للبيت أعظم ما يقومون به من عمل فى حياتهم . وجلهم يؤمن بأن هذه الفريضة الدينية أكبر أهمية وأوفر أجراً من كل ما يأتيه المسلم من شعائر دينية أو من طقوس مذهبية . فالحج فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفيه يمتحن الخالق عباده المؤمنين . ويندر بينهم من لا يملى نفسه ويمنيها زيارة الأرض المقدسة ، ما دام أول الحج عبادة وآخره عيداً

والغريب من أمر هؤلاء المسلمين أنهم يتهافتون على الحج على ما فيه من مصاعب ومتاعب وأهوال . وهم شاعرون بأن تلك الجهود والشدائد قد تودى بحياتهم كما أودت بحياة الألوف من إخوانهم من قبل ، فكانت خاتمة حياتهم رقدة هادئة بين طيات التربة المباركة أو بجوار البيت المقدس . ومن حسن حظ المسلمين أنه منذ أن وضع ابن السعود يديه على أرض الحجاز ساد البلاد أمان وعمها رخاء ، وأخذ الحجاج يتمتعون باستقرار واطمئنان بعد ما ظلوا سنين طويلة يقاسون ، فضلاً عن أهوال السفر ومشاق الطريق ، اعتداء البدو من سكان الحجاز ونهبهم لأموالهم وأمتعتهم وطمع الموظفين الحجازيين فيهم

وما تكاد تطأ قدما الحاج أرض الحجاز ويمتع بصره بمنظر جبالها الجرداء ووديانها القاحلة حتى يشعر بزوال ما كان يقاسيه من عذاب أثناء سفره الشاق . فكأن رؤية شواطئ البلاد المقدسة تذهب التعب عن نفسه ، وتزيل المصاعب من سبيله ،

وتنسيه ما ينتظره من متاعب عند ما يعود إلى وطنه . وكم كان عجبي شديداً عند ما شاهدت في صباح يوم وصولي إلى جدة جماعة من الحجاج شاخصين نحو تلك التلال الجرداء التي تخفي وراءها قبلة المسلمين وأمنية كل فرد منهم . وكانت عيونهم تشع بنور الفرح ، وأفواههم صامتة حائرة ، وقلوبهم خافقة واجفة من وقع ذلك المنظر الذي كان يوحي إليهم السر الإلهي والإيمان الصادق

والله وحده يعلم ما سيشعرون به عند ما يقفون خاشعين نادمين على ما اقترفوا من ذنوب وما آتوه من آثام حيال الكعبة المقدسة بكسوتها الوشاة بالذهب ، أو عند ما يستلمون بأيديهم المرتعشة الحجر الأسود المبارك ، وعند ما يضمون شفاههم عليه ؛ ذلك الحجر الذي جاء به جبريل من السماء لإبراهيم الخليل ، والذي ظل المسلمون يقدسونه طوال القرون الثلاثة عشر الماضية

إن الأيام التي يقضيها الحاج بمكة والتي لا تزيد على خمسة عشر يوماً تمر كالحلم عليهم ، وفي هذه الأيام القلائل ينصرفون إلى عبادة الله متناسين ما في الأرض من متاع زائل ، كاظمين ما في قلوبهم من أحقاد ، كابتين ما في نفوسهم من شهوات ، متناسين عن جميع الاختلافات المنصرية ، والفروق المذهبية ، والمطامع الفردية ؛ كأنما اجتمعت أرواحهم جميعاً تحت سماء الكعبة التي سطرت على غطائها آيات القرآن وأحاديث الرسول

وكم من الحجاج يستطيع التعبير عن شعوره أثناء وقفته تلك ؟ إن ذلك اليوم هو اليوم الذي تنتصر فيه الروح على الجسد ؛ وإن تلك الوقفة في ذلك الحرم المترامي الأطراف لوقفة تقرب المسلم من المسلم ، وتجعله يشعر نحو أخيه في الدين بأعظم ما يشعر به نحو ابن أمه

البصرة — العراق

موسى السلمان

---

٩ – المصريون المحدثون

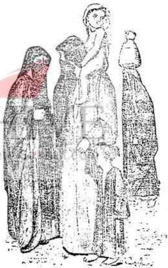
شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين
للأستاذ عدلي طاهر نور

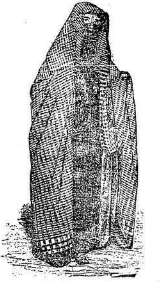
تابع الفصل الأول

وملابس أغلب الموسرات من الطبقة الدنيا تتألف من سروال كشنتيان السيدات الراقيات، إلا أنه من أبيض القطن أو الكتان الواحد الشكل؛ وقميص أزرق من الكتان أو القطن لا يكون بسعة قميص الرجال، يصل إلى القدمين؛ وبرقع أسود من غليظ الكريب[1]؛ وطرحة زرقاء قاتمة من الموصلي أو الكتان. وبعضهن يلبسن فوق القميص الطويل أو بدلاً منه ثوباً من الكتان كثوب السيدات الراقيات[2] (شكل ٢٦)، وبعضهن يلبسن قميصاً قصيراً تحت القميص الطويل ويضفن إليه أحياناً صديرياً أو عنترياً. وتشمر أكمام الثوب فوق الرأس حتى لا تضايق الشخص أو لتحل محل الطرحة[3]. وقد يتدثر بعضهن فوق هذه الثياب بمعطف ذي مربعات شطرنجية يشبه الحبرة ويلبس مثلها أو مثل



شكل ٢٦ — (نساء الطبقات الدنيا)

الطرحة[1] ويتكون من قطعتين من القطن المنسوج أشكالاً مربعة زرقاء وبيضاء، أو خطوطاً متشابكة تصبغ أطرافه بصبغ أحمر. ويسمى «مِلاية»[2] (شكل رقم ٢٧). وتزين أعلى البرقع بلآلئ زائفة، وقطع صغيرة من النقود الذهبية، وبعض الحلي الذهبية الصغيرة المسماة «برق» وأحياناً بخرزة من المرجان تحتها قطعة من النقود الفضية وبعض النقود الذهبية وغالباً بحبات من النحاس أو الفضة تسمى «عيون» تعلق في الأطراف (شكل رقم ٢٨). وتلف الرأس عنديل أسود يسمى «عصبة» بحاشية حمراء وصفراء، يطوى منحرفاً ويعقد عقدة واحدة من الخلف (شكل رقم ٢٩). وقد يلبس الطروش والفاروديه بدلاً من العصبة. وأحسن الأحذية التي ينتعلها نساء الرعاع تكون من الجلد الأحمر المراكشي المدبب الطرف ولكن يغلب أن يكون طرفها مستديراً. والبرقع والنعال شائعة الاستعمال في القاهرة والوجه البحري. أما في الصعيد فقلما يستعملان



(شكل ٢٧ « الملاية »)



شكل ٢٨ – (براقع سود محلاة)

(١) أما إذا كن من سلالة النبي فيلبسن برقعاً أخضر

(٢) انظر الصورة اليسرى من الشكل ٢٦

(٣) انظر الصورة اليمنى في الشكل رقم ٢٦

(١) وهناك نوع راق من الملايات يكون من الحرير المختلف الألوان إلا أنه نادر الاستعمال. والقطعتان اللتان تؤلف منهما الملاية يخاطان معا كقطعتي الحبرة

(٢) عوضاً عن «مُلاءة»

وعند الضرورة يستبدل بالبرقع إسدال الطرحة على الوجه .

والملاحظ أن نساء الطبقات السفلى حتى فى العاصمة لا ينتقبن .

والثياب الشائعة فى معظم القطر المصرى هى القميص الأزرق أى الثوب، والطرحة . أما فى أقاليم الصعيد الأقصى، وعلى الأخص ما فوق مدينة أخميم، فأغلب نسائها يتغطين بقطعة من الصوف الأسمر القاتم تسمى « هُلالية » تلف حول الجسم وتضم أطرافها فوق الكتفين(١) (شكل رقم ٣٠) وتستعمل قطعة مثلها كطرحة . وهذا الثوب القاتم اللون بالرغم من جماله يشوه هيئتهن كالوشم الأزرق الذى يرسمنه على شفاههن . والكثير من نساء الطبقة الدنيا يتحلين بحلى زائفة مختلفة من أقراط وعقود وأساور ومن خزام الأنف أحياناً ، وبعضها موصوفة ومصورة فى ملحق الكتاب



(شكل ٢٩ العصبة)

ويرى المصريات أن واجب تغطية الرأس وما خلفه أولى من تغطية الوجه ، وحجب الوجه أولى من حجب أكثر أجزاء الجسم . وكثيراً ما رأيت فى هذا البلد نساء لا تكاد تسترهن أسمالهن الحقيرة ، وأخريات فى زهرة الشباب أو فى متوسط العمر لا يحملن على أجسادهن غير خرقة ضيقة تشد حول الوركين



(شكل ٣٠) قروية من الصعيد الأقصى من مدينة « طيبة »

(١) لا بد أن القارئ قد لاحظ أن هذا الثوب الفاتن حلة من حلل الاغريقيات والرومانيات فى قدم الزمن

الفصل الثانى

الطفولة وتربية الأطفال

يسترشد المسلمون فى تربية أطفالهم والاعتناء بهم بأوامر الرسول (صلعم) وتعاليم الأئمة . ومن أول الواجبات عند ولادة الطفل التأذين فى أذنه اليمنى ، ولا بد أن يكون المؤذن ذكراً . ويقرأ بعضهم الإقامة، وهى تشبه الأذان تقريباً ، فى الأذن اليسرى(١) . والغرض من ذلك حفظ الطفل من الجن . وقد يتلى للغرض نفسه عبارة : « باسم الرسول وابن عمه على »

وكانت استشارة المنجمين قبل تسمية الطفل واتباع ما يختارونه له ، عادة شائعة فى مصر والبلاد الإسلامية الأخرى . وقلما يتبع أحد الآن تلك العادة القديمة فيختار الأب لابنه اسماً من غير احتفال ولا تكلف ؛ أما تسمية البنت فتكون عادة باختيار الأم . وكثيراً ما يسمى الأولاد بأسماء الرسول (صلعم) (محمد، أحمد أو مصطفى) أو أهل البيت (على ، حسن ، حسين الخ ...) أو أصحابه الأفاضل (عمر ، عثمان ، عمر الخ ...) أو الرسل والأنبياء ، مثل : (إبراهيم ، إسحق ، إسماعيل ، يعقوب ، موسى ، داود ، سليمان الخ ...) أو يسمون عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد القادر وما شابه ذلك ... أما البنات فكثيراً ما يسمين بأسماء نساء الرسول أو ابنته الحبيبة أو غيرهن من نساء عائلته مثل خديجة ، عائشة ، أمنه ، فاطمة ، زينب ، أو يسمين بأسماء تعنى محبوبة ، مبروكة ، نفيسه الخ ... أو بأسماء الزهور أو أى معنى لطيف آخر(٢)

ولما كان الاسم لا يتحتم توارثه على العموم ، فقد جرت العادة أن يميّز الشخص بعلم أو أكثر : إما « كنية »

(١) انظر الفصل التالى فيما يتعلق بكلمتى « آذان » و « إقامة »

(٢) جرى ذوق العصر فى القاهرة على تغيير الأسماء الخمسة الأول والاسم الأخير إلى خدوجه ، عيوشه ، أمونة ، فطومه ، زنوبة ، نفوسه وهناك أسماء أخرى تنطق بهذه الطريقة نفسها وهى تطلق هنا على سبيل الفضل والجاه (ويخطئ الكتاب الأوربيون فى كتابة اسم الرحالة الشهير ابن بطوطة بالتشديد Ibn-Battootah فيكتبونه ابن بطوطة بالتخفيف Ibn-Batûtah أو Ibn-Batootah)

مثل « أبو على[١] » ، « ابن أحمد » ... الخ . أو « لقب » مثل « نور الدين » ، « الطويل » الخ ... أو « إسم » يتعلق بالبلد أو المولد أو الأصل أو المذهب أو التجارة أو الحرفة ... الخ[٢]. مثل : الرشيدى ، الصباغ ، التاجر . وكثيراً ما يتوارث بعض هذه الأعلام وعلى الأخص الألقاب والنسب فتصبح لقب العائلة

أما ملابس أطفال الطبقتين الوسطى والعليا فهى كملابس الوالدين ، ولكنها قذرة غير مهندمة . ويلبس أطفال الفقراء إما قميصاً وطاقية من القطن أو طربوشاً ، وإما أن يُتركوا عراة حتى سن السابعة أو ما بعد ذلك . وقد لا يصعب عليهم الحصول على خرقة تستر بعض الجسم كما فى أغلب القرى . ويلاحظ أن البنات الصغيرات اللائى لا يملكن إلا قطعة من رث النسيج لا تكفى الجسم والرأس معاً ، يفضلن تغطية الرأس ، وأحياناً يدفعهن الدلال إلى حجب الوجه بفضلة من النسيج بينما يترك الجسم كله مكشوفاً . أما الراقيات فى سن الرابعة أو الخامسة ، فيلبسن كأمهاتهن النقاب الأبيض . ويحلق رأس الولد ، حينما يبلغ الثانية أو الثالثة أو قبل ذلك ، وتترك له خصلة فى وسط الرأس وأخرى فوق الجبهة[٣] . وقلما يحلق رأس البنات . ويُحمل الأطفال فوق أكتاف أمهاتهم وصبياتهم[١] على هيئة ركوب الخيل ، أما إذا كانت المسافة قريبة فيحملون فوق الورك

لا تُظهر الموسرات فى تربية أطفالهن تسامحاً زائداً وشفقة مفرطة ، ولكن الفقيرات لا يبذلن نحوهم إلا العناية القليلة بقدر ما تقتضيه الطبيعة من الحاجة الضرورية . وقد جعل الشرع تمام الرضاعة حولين كاملين إلا إذا وافق الزوج على غير ذلك ، فيفطم الطفل عادة بعد السنة الأولى أو بعد سنة ونصف سنة . وينشأ الطفل — ذكراً أو أنثى — فى الأوساط الموسرة ، بين جدران الحريم ، أو على الأقل داخل المنزل . ويستمر هكذا — تحت رعاية النساء — حتى يعهد به إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة كل يوم . ومن المهم ملاحظة أن ما يتعلمه الطفل فى الحريم من واجباب الاحترام المشوبة بالعطف والمحبة نحو الوالدين وكبار السن ، يهيئه للاتصال بالعالم الخارجى كما سترى بعد قليل

وكثيراً ما يصطحب النساء أطفالهن عند الخروج للزيارة أو للتنزه ؛ فتحمل كل جارية أو خادمة طفلاً أو تجلسه أمامها على الحمار ، إذ جرت العادة أن تركب الخادمات مثل سيداتهن الحمير . وكان النساء إذا ركبن الحمير أدلين كل ساق على جانب To sit astride .

ولكن قلما ينعم أطفال الأغنياء بهذه التسلية الهينة ؛ فقد أثر على صحتهم غلو الحجاب وشدة العناية وإفراط التغذية ؛ فيصبحون لذلك كثيرى القلب ، متكبرين ، أنانيين . ويندر كذلك أن يشتد نساء الطبقة الوسطى فى تربية أطفالهن . ويتوقف تقدير الزوج لزوجه أو تقدير الناس لها إلى درجة كبيرة على كثرة النسل والعناية بالأطفال ؛ لأن الشرقيين رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، يعتبرون العقم لعنة وعاراً . ومن الشائن أن يطلق الرجل امرأته بلا سبب قوى ما دامت قد ولدت له طفلاً وما دام الطفل حياً . فالمرأة الولود تكون موضعاً لحب الزوج واحترام الناس ، وبيتها يكون مثابة للسرور والإيناس

(يتبع) عدلى طاهر نور

---

(١) وهناك معنى مجازي لهذه الكنية . أنظر ما يتعلق به فى حاشية بآخر الفصل الرابع

(٢) يسمى « نسبة » أو « اسم منسوب »

(٣) من الشائع عند أكثر فلاحى مصر ، بمناسبة حلق رأس الطفل لأول مرة ، أن تذبح ذبيحة من المعز على قبر أحد أولياء الله ، الأقرب إلى البلد . ويعد اللحم لوليمة يدعى إليها الأصدقاء ويحضرها من يريد . وتلك العادة أكثر شيوعا فى الصعيد وعند القبائل التى لم يمض على إقامتها بشاطئ النيل زمن طويل . وكان العرب الجاهليون يجرون على هذه العادة . وكانوا يتصدقون بمقدار وزن الشعر ، فضة أو ذهبا . وقد تلقى هذه العادة بعض الضوء على الحالة المذكورة فى سفر صموئيل الثانى ، الاصحاح الرابع عشر الآية ٢٦ ، ونصها : (وعند حلقه رأسه إذ كان يحلقه فى آخر كل سنة ، لأنه كان يثقل عليه فيحلقه ، كان يزن شعر رأسه مئتى شاقل بوزن الملك ؛ المتعلقة بوزن أبشالوم شعر رأسه بعد ما حلقه) . وتسمى الذبيحة « عقيقة » وتقدم ضحية لافتداء الطفل من النار . وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم عادة حلق بعض رأس الطفل وترك البعض الآخر

(١) أنظر أشعياء الاصحاح التاسع والأربعون ، الآية ، ونصها : ... فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن

ليالي القاهرة

بين الشاعر والريح

للدكتور إبرهيم ناجي

الشاعر :

لستُ أنسى أبدًا ... ساعةً في العُمُرِ
تحت ريحٍ صفّقتْ ... لارتقاصِ المطرِ !!
نوّحتْ للذكرِ ... وشكتْ للقمرِ
وإذا ما طربتْ ... عربدتْ في الشجرِ

***

هاكَ ما قد صبّت الريـ ... ـحُ بأذنِ الشاعرِ
وهي تُغري القلبَ إغرا ... ءَ النصيحِ الفاجرِ

الريح :

أوَ كلُّ الحبِّ في رأ ... يكَ غفرانٌ وصفحُ
أيها الشاعرُ تغفو ... تذكرُ العهدَ وتصحو
وإذا ما التأمَ جرحٌ ... جدَّ بالتذكارِ جرحُ
فتعلّمْ كيف تنسى ... وتعلّمْ كيف تمحو

***

هاكَ فانظرْ عددَ الرمـ ... ـلِ قلوبًا ونساءْ
فتخيّرْ ما تشاءْ ... ذهبَ العمرُ هباءْ
ضلّ في الأرضِ الذي ينـ ... ـشدُ أبناءَ السماءْ
أيُّ روحانيةٍ تُعـ ... ـصرُ من طينٍ وماءْ

الشاعر :

أيها الريحُ أجلْ لكنّما ... هي حبي وتعلّاتي ويأسي
هي في الغيبِ لقلبي خُلقتْ
أشرقتْ من قبلِ أن تشرقَ شمسي
فعلى تذكارِها أطبقتُ عيني ... وعلى موعدِها وسّدتُ رأسي

***

يا لها من صيحةٍ ما بعثتْ ... عندَه غيرَ أليمِ الذكَرِ
أرِقتْ في جنبِه فاستيقظتْ ... كبقايا خنجرٍ منكسرِ
لمحَ النهرُ وناداه لهُ ... فمشى منحدرًا للنهرِ
ناضبَ الزادِ وما من سفرٍ ... دونَ زادٍ غيرُ هذا السفرِ

الشاعر :

يا حبيبي كلُّ شيءٍ بقضاءْ ... ما بأيدينا خُلقنا تعساءْ
ربّما تجمعُنا أقدارُنا ... ذاتَ يومٍ بعدما عزَّ اللقاءْ
فإذا أنكرَ خلٌّ خلَّهُ ... وتلاقينا لقاءَ الغرباءْ
ومضى كلٌّ إلى غايتِه ... لا تقلْ شئنا وقلْ لي الحظُّ شاءْ

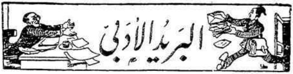
ابرهيم ناجي

صرخة !!

للأديب عبد الرحمن الخميسي

علامَ أضحكُ والآفاقُ باكيةٌ ... والشمسُ تحجبُها الأنواءُ والظُّلَمُ
والريحُ قد دمدمتْ في السهلِ فاختنقتْ ... بها الأزاهرُ صرعى وهي تبتسمُ
والسيلُ يجرفُ مَن يلقاه مؤتلقًا ... حيًّا ويتركُ مَن أحرى به العدمُ
والنارُ تأكلُ ما اخضرّتْ منابتُه ... أمّا الهشيمُ فتُبقي عُمرَه الرِّممُ
علامَ أضحكُ يا ربّاه من زمني ؟ ... وشاطئي فوقَه الأهوالُ ترتطمُ !
لكنها ضحكةُ البركانِ قاذفةً ... من قلبيَ النارَ أذكى أصلَها الألمُ
إني أقولُ لهذا الدهرِ في صلفٍ : ... إشربْ دمائي واثملْ أيها النهمُ !
وخذْ فهذا فؤادي في يدي قلقٌ ... واشبعْ فهيهاتَ يغشى مُهجتي السأمُ
هيهاتَ تبلغُ إذلالي وتخضعُني ... إني عتيٌّ قويٌّ ثائرٌ برِمُ !
وإن تمزّقْ ضلوعي منكَ صائبةٌ ... ففي فمي من جراحي بسمةٌ ودمُ !

عبد الرحمن الخميسي



حول كلمة « هناء »

سبق للأدباء أن تناولوا لفظة « هناء » بحثاً منذ ست سنوات ولا بأس من إيراد طرف من أقوالهم تعميما للفائدة :

قال الأستاذ أسعد خليل داغر : إن الهناء صحيح ، لأنه اسم مصدر من هنَّأ بتشديد النون كالسلام من سلَّم والعزاء من عزَّى والكلام من كلَّم

وقال الأستاذ يوسف الدجوى من هيئة كبار العلماء : اشتهر فى هذه الأيام التى كثر فيها الاجتهاد وشغف الناس بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناءة لا هناء ، وهذا من قصور الاطلاع . ففى كتاب الهمز لأبى زيد الأنصارى المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفيد صحة ذلك ووروده . وكذلك فى كتاب « الفلك المشحون » ليونس المكى المتوفى فى القرن الثامن ما يفيد ذلك أيضاً (ص ١٦٣) ومثل ذلك قول الأديب الكبير ابن نباته :

هناء محا ذاك العزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك فى حروف الزيادة ذلك البيت المشهور :

هناء وتسليم تلا يوم أنسه ... نهاية مسئول أمان وتسهيل

وهو الذى قال : إنى قرأت صحاح الجوهرى فلم أستفد منه غير كلمتين

وقال الأستاذ محمد على الدسوقى صاحب كتاب « الألفاظ العامية » : الهناء والهناءة بمعنى — جاء فى صحيفة ٢٤ من الجزء الرابع من المخصص : هنأنى الطعام يهنئنى والاسم الهناء

وقال الأستاذ وحيد بأهرام ١٩٣٥/٦/٥ : إن الهناء لفظ عربى وكفى ذكر وروده فى تاج اللغة وصحاح العربية جاء فيه : هنأ يهنئى بفتح فسكون ، ويهنؤنى بفتح فسكون هنأ وهناء . ترى ، أيكتفى اللغويون والمتأدبون بما تقدم فيدعو كل منهم لأخيه بالهناء ، أم سوف يقوم قائم منهم بعد ست سنوات أخر فينكر هذا اللفظ ؟

يجمل بالمجمع اللغوى أن يهتم بمثل هذا الصواب المخطأ ويذيعه فى نشرات على الناس ، فمن الخير تصحيح الخطأ ، أما تخطئة الصواب ، فجريمة لا تغتفر

« القناطر الخيرية » — محمد فتح الباب

إلى الأستاذ الكبير ا . ع

ذكر الأستاذ الكبير (ا . ع) فى العدد ٤٢٤ من الرسالة أن الكتاب والبلغاء يخطئون فى استعمال كلمة (عَبْر) فى نحو قول الصحف « ومن زمن قريب ادعت اليابان لنفسها حق مرور قواتها عَبْر شمال الهند الصينية » وقولها : « كلما فرغت مصانعنا من إخراج طائراتنا الضخمة أو جاءت إلى هنا عبر الأطلنطى » وقال إنها ترجمة خاطئة لكلمة انجليزية ذكرها

وإن الكتاب جعلوها فى نسج الكلام ظرفاً كما يصنع الإنجليز بكلمتهم فأخرجوها عن معناها ووضعها اللغوى بلا مسوغ مطلقاً

قلت : قد جاءت هذه الكلمة فى شعر إسلامى لسواد بن قارب الكاهن حين وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلماً

روى صاحب الجمهرة أن سواداً قال لعمر بن الخطاب : إن نجياً من الجن أتاه فى ثلاث ليال متتابعة وبشره بظهور نبى يدعو إلى الحق . قال سواد : « فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلت لناقة من إبلى وأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمت وبايعت وأنشأت أقول » :

أتانى نجيِّى بعد هدء ورقدة ... ولم يك فيما قد عهدت بكاذب

ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤى بن غالب

فشمَّرت عن ذيلى الإزار وأرقلت ... بى الدعلبُ الوجناء عَبْر السباسب[1]

(مقدمة جمهرة أشعار العرب ص ٢٦)

---

(١) ولعل من الانصاف أن أقول : يمكن تخريج الشاهد على غير ما استشهدت له بجعل (عبر) صفة الناقة ، جاء فى القاموس « وناقة عبر أسفار مثلثة قوية » تشق ما مرت »

ومن ثمّ يرى الأستاذ الكبير أن الكلمة صحيحة كما يستعملها الكتاب على عهدنا

ولو أننا أردنا تخريج الكلمة على وجه صحيح لوجدنا أكثر من وجه خلافاً لما يقول الأستاذ ، وأقرب هذه الوجوه عندي أن تكون «عبر» مصدراً مراداً به اسم الفاعل فتكون حالاً مما قبلها ويكون التقدير (صرور قواتها عابرة شمال الهند الخ) و (أو جاءت إلى هنا عابرة الأطلنطي)

والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل كما قال الله عز وجل : «إن أصبح ماؤكم غوراً» أي غائراً[1] ، ويقال رجل عدل أي عادل[2] ويوم غمّ أي غامّ ، كما يقع اسم الفاعل في موضع المصدر نحو قول الشاعر[3] :

ألم ترني عاهدت ربي وإنني لبين رتاج قائماً ومقام
على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فيّ زور كلام[4]

وبعد . فلعلي أتيت الأستاذ الكبير بما يطمئن به قلبه والسلام

(بني سويف) محمد محمود رضوان
المدرس بالمدرسة الابتدائية

حول تقرير مراقب التعليم الأولى

كان تقرير الأستاذ مصطفى شكري بك المنشور بعدد ٤٣١ من (الرسالة) بمثابة اعتراف صريح ببراءة المعلم من تهمة إخفاق التعليم الإلزامي ، وإلقاء هذه التبعة على كاهل الذين وضعوا أصوله ورسموا فصوله ، وأسسوا قواعده ، وشرعوا مناهجه ! وأهم هذه الحقائق التي وردت في التقرير هي : عدم صلاحية النظام النصف يومي ، وعدم كفاية الزمن لدراسة مواد المنهاج ، وإرهاق المعلمين بتدريس ٤٨ حصة في الأسبوع ، وضآلة المرتبات ، وعدم العدالة في الترقيات ، وتنازع السلطة بين الوزارة ومجالس المديريات ...

هذه حقائق لا مراء فيها ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أثرها في فشل هذا التعليم ، كما لا يستطيع أحد أن يحمّل المعلم تبعة شيء منها ، لأنها ليست من عمله ، وقد رفع صوته منادياً بإصلاحها فلم يسمع له أحد قولاً ... ! !

وقد أشار التقرير إلى ضرورة العناية بإعداد المعلم ، وعندي أن الوزارة قد أهملت المعلم من ناحيتين :

الأولى عدم استقرار المناهج في مدارس المعلمين ، وعدم موافقتها لمقتضى الحال . والثانية إهمال مكتبات المدارس الإلزامية وعدم تزويدها بالكتب النافعة المفيدة التي يمكن المعلم أن يرجع إليها ويستعين بها على توسيع ثقافته . فليس في مكتبة المدرسة الإلزامية غير مختار الصحاح وتفسير الجلالين ! !

أما علوم اللغة والدين والفقه والتاريخ والأدب وغيرها ، فليس فيها منها ولا كتاب واحد !

على أن هذا لم يمنع الكثير من المعلمين من الاعتماد على أنفسهم في اقتناء الكتب المختارة والمجلات النافعة . فاستطاعوا بفضل ذلك أن يظهروا على غيرهم ، وأن يحصلوا على الشهادات العالية من منازلهم

ومن غريب المفارقات أن الوزارة بينما تبخل على المعلم الإلزامي حتى بالكتاب الذي يستفيد منه ، تعطي الكثير من الكتب لمكتبات مدارسها الثانوية والابتدائية ، وهي تعلم أن هذه الكتب ستبقى كما هي لا تقلب صفحاتها يد ، ولا تنظر إليها عين ، وأن شأنها شأن القرط عند مقطوعة الأذنين !

فعسى أن يكون لتقرير الأستاذ المراقب عند الوزارة من الأثر العملي ما يرتجيه المشفقون وما يقدره المخلصون .

«المنصورة» علي عبد الله

حول نقد كتاب «كليلة ودمنة»

ستصدر ابتداءً من العدد المقبل بقية مقالات الدكتور عبد الوهاب عزام في الرد على نقد الأستاذ عبد السلام هارون في كتاب «كليلة ودمنة»

---

(١) راجع كامل المبرد ص ٧١ طبعة المكتبة التجارية

(٢) وهو أحد أقوال ثلاثة ثانيها أنه وصف بالمصدر على سبيل المبالغة كأنه نفس العدل وثالثها أنه على تقدير مضاف أي ذو عدل (راجع الصبان)

(٣) هو الفرزدق ، وهما من أبيات قالها في آخر عمره حين تعلق بأستار الكعبة وعاهد الله ألا يكذب ولا يشتم مسلماً

(٤) قال المبرد : «وقوله : ولا خارجا ، إنما وضع اسم الفاعل في موضع المصدر . أراد لا أشتم الدهر مسلماً ولا يخرج خروجاً من فيّ زور كلام لأنه على ذا أقسم» الكامل ص ٧١



حوار عند الغروب (*)

للقاص الفرنسي بيير لويس

للأديب عبد الغني العطري

« بيير لويس شخصية أدبية فذة لها مكانتها الرفيعة فى عالم الرواية والقصة والفكر . ولو لم يكن لهذا الكاتب سوى روايته الخالدة « آفروديت » التى تجرى حوادثها فى مدينة الأسكندرية ، ولو لم يكن له من أبطاله سوى « كريزيس » صاحبة تمثال « حياة خالدة » لكان ذلك كافيا لجعله فى مقدمة زعماء الرواية العبقريين

وكما برع لويس في الرواية فقد برع فى القصة والأقصوصة أيضا ، وله فى ذلك مجموعة نفيسة سماها « Contes choisis » قصص مختارة ، والقطعة التى نقدمها اليوم لقراء الرسالة الزهراء تحتل المكان الثاني فى هذه المجموعة الرائعة . ولعل أقوى مميزات هذه الأقصوصة الحوار الطريف « الساذج » الذى أجراه الكاتب على لسان راعية وراع (ع . ع)

أركاس — أيتها الفتاة ... ياذات العينين السوداوين

مليتا — لا تمسنى !

— لن أمسك ... سأظل بعيداً عنك — كما ترين — يا أخت آفروديت وياذات الشعور الجميلة المعقدة على شكل عناقيد من العنب . هأنذا أقف على جانب الطريق دون أن أستطيع الذهاب ، لا إلى الذين ينتظروننى ، ولا إلى الذين خلفتهم ورائى

مليتا — إذهب! إذهب! إنك تتكلم عبثاً ، وتفوه بما لا طائلة تحته أيها الراعى من غير غنم ، وياجوّاب الطرق المشبوهة الوعرة إذا كنت لا تستطيع بعد سلوك الطريق العام فاذهب إذن عن طريق الحقول ، على ألا تطأ قدماك مرجى المخضوضر . أنت الذى لا أعرفه ... وإلا ناديت واستغثت

(*) قطعة من كتاب (من أقاصيص الغرب) الذى سيصدر فى أواخر هذا العام

— من عساك تنادين فى هذه الوحدة ؟

— الآلهة التى تسمعنى

— إن الآلهة يا فتاتى الصغيرة بعيدة عنك الآن أكثر مما أنا بعيد عنك بكثير ولو كانت على مقربة منك لما منعتنى من إبداء إعجابى بجمالك وسحرك ، لأنها تفخر بوجهك الصبوح وتزدهى وتعلم أنه تحفتها الرائعة

— صه أيها الراعى صه ! إليك عنى . لقد حظرت أمى عليّ الإصغاء إلى أقوال الرجال . إنى فى هذا المكان أرعى نعاجىَ الكثيرة الصوف وأحافظ عليها إلى أن تتضيف الشمس ثم تأوى إلى مرقدها . يجب علىّ ألا أصغى إلى أصوات الفتيان الذين يمرون بهذا الطريق ، مع أنسام المساء والغبار المتطاير

— ولم ذلك ؟

— لست أدرى السبب ، غير أن أمى تعرفه بدلاً منى . . . لم يمض بعدُ ثلاثة عشر عاماً على ولادتها إياى فوق سريرها المصنوع من ورق الشجر ، وسأكون عاقة لها إذا لم أصدع بكل ما تأمرنى به

— لم تفهمى يا فتاتى مقصد أمك الرءوم ... إن أمك طيبة عاقلة ، حسناء محترمة . . . لقد حدّثتك إذ حدثتك عن البرابرة الذين يجوبون الحقول والأرياف وهم يحملون المجّان (1) فى يسرام والسيوف فى يمنام ... هؤلاء يا فتاتى يستطيعون إيذاءك لأنك ضعيفة وهم أقوياء ... لقد قتل هؤلاء الأشرار فى المدن التى احتلوها خلال الحروب البغيضة كثيراً من العذارى الحسان اللواتى يضاهى جمالهن جمالك . ولئن عثروا بك فى طريقهم فلن يشفقوا عليك . . . أما أنا فأى أذى أستطيع إلحاقه بك ، ولست أحمل سوى جلد الخروف على كتفىّ ، وهذه العصا فى يدى ... أنظرى إلىّ ملياً ... أمخيف أنا إلى هذا الحد ؟ ...

— لا أيها الراعى ... لست مخيفاً ... إن ألفاظك عذبة ناعمة ، لذا يمكننى أن أصغى إليها طويلاً ؛ ولكنهم حدثونى فقالوا : إن أعذب الكلام وأحلاه أكثره إمعاناً فى الغدر

(1) جمع مجن

والخداع ، وذلك حين يتمتم به شاب فى أذنى واحدة منا نحن الفتيات ...

— أأفوز منك بجواب إذا وجهت إليك سؤالاً ؟

— أجل ...

— بم كنت تفكرين تحت الزيتونة السوداء عندما مررتُ ؟

— لا أريد أن أخبرك به ...

— ولكنى أعرفه !

— قله لى ...

— إذا سمحت لى بالدنو منك ، وإلا فسألزم جانب الصمت ، لا أستطيع أن أقوله إلا همساً ... فى أذنك ، لأنه سرك وليس سرى ... أتأذنين لى بالدنو ... وأن آخذ يدك بين يدى ... ؟

— قل ... بم كنتُ أفكر ؟

— فى نطاق زفافك ...

— ولكن ... من أنبأكَ بهذا ؟ أكنتُ أتحدث بصوت مرتفع ؟ أأنت إله أيها الراعى فتقرأ من مسافة بعيدة ما يجول فى خواطر العذارى ؟ ... لا تنظر إلىّ هكذا ... لا تحاول أن تقرأ أفكارى فى هذه اللحظة ... !

— كنت تفكرين بنطاق زفافك وبالرجل المجهول الذى سيحل عقدته بعض من ألفاظه المعسولة العذبة التى تخشينها الآن ... تُرى ، أتخلو هذه أيضاً من الخيانة والغدر ؟

— إنى لم أستمع إليها بعد ...

— ولكنك تستمعين إلى كلماتى ، وتنظرين إلى عينىّ ... !

— لا أريدُ بعد أن أراهما ...

— سترينهما فى الحلم ...

— أيها الراعى ... !

— لماذا ترتعشين عندما آخذ يدك فى يدىّ ... ؟ لماذا تنحنين عندما أضمك إلى صدرى ... ولم يبحث رأسك الكليل عن كتفى ... ؟

— أيها الراعى ... !

— أكان فى الإمكان أن أضمك هكذا بين ذراعى وأنت شبه عارية ... لو لم أكن زوجاً لك على وجه التقريب ؟

— ولكن لا ... لست زوجاً لى ... دعنى ... دعنى ... إنى خائفة ... إليك عنى فأنا لا أعرفك . دعنى ، إن يديك تؤذيانى ... دعنى ... فلست أريدك !

— لم تتحدثين إلىّ أيتها الطفلة بلسان أمك ؟

— لا ليست هى التى تتحدث إليك ، بل أنا التى أتحدث ، إنى عاقلة مفكرة . إليك عنى أيها الراعى فأنا أخجل أن آتى بمثل ما فعلته « تايبس » أو « فيليرا » أو « كاوى » اللواتى لم ينتظرن يوم زفافهن ، بل تعلمن أسرار « آفروديت » وأخذن ينسلن أولادهن فى الخفاء ! ... لا ... لا ... لن أستسلم ! فى إمكانك أن تمزق قميصى فلن أستسلم إليك أيها الراعى ! سأخنق نفسى بيدى هاتين قبل أن تنال منى مأرباً

— ولِمَ كل ذلك ؟ بل ماذا صنعت ؟ لقد لمست قميصك ولم أمزقه ... ولمست نطاقك دون أن أفك عقدته . ليكن ما تشائين ! سأتركك تذهبين حيث أردت ... هيا اذهبى ... إذهبى ... لم لا تذهبين ؟

— دعنى أبكى

— لعلك تحسبين أن حبى لك قليل ضئيل حتى أسلبك من نفسك ثم أدعك تستسلمين إلى أحزانك ؟ أكنت أتحدث إليك هكذا مطولاً لو أنى لم أكن راغباً منك بغير ساعة من اللذة البهيمية التى تستطيع أية فتاة راعية أن تمنحنى إياها ؟ أما أنبأتك عيناى بما أريد ؟ ولكنك لا تنظرين إليهما أبداً ... إنك تحجبين عينيك ، وترسلين عبرتيك

— أجل ...

— ولكن ... لو شئت لوددت أن أقضى عند قدميك حياة مفعمة بالحب والهوى ، ولغمرتك بألفاظى العذبة الناعمة ، ولكنت طوقتك بذراعى هاتين ، ووضعت رأسى على نهدك ، وفمى على ثغرك ، ولكنت أرسلت شعرك الجميل يداعبنى برفق وحنان ؛ ونحن نتناغى ونتبادل القبل . إصغى إلىّ قليلاً يا فتاتى ! لو شئت لصنعت لك كوخاً من أغصان خضر مزهرة وأعشاب طرية نضرة ملأى بالجنادب المغردة والجعلان الذهبية التى تشبه الجواهر فى قيمتها ! ... فى ذلك المكان تنفردين بى طوال الليالى على فراش أبيض واحد هو معطفى المدود ، وهناك يخفق قلبانا إلى جانب بعضهما إلى الأبد

— دعني أبكي أيضاً
— بعيداً عني ؟
— بين ذراعيك ... وأمام ناظريك !
— أي حبيبتي ... إن الظلام أخذ ينتشر ، وبدأ الليل يرخي سدوله ، وشرع النور يتوارى في السماء كطائر مجنّح[1]
لقد أصبحت الأرض بادية الظلمة . لم يعد يُرى من بعد سوى مجرى الجدول الفضي الطويل الذي يتلألأ كأنه نهر كبير من النجوم حول حقلنا ... فياله من نور عظيم !
— بلى إنه لعظيم ... والآن هيا ، قدني
— تعالي ... إن الغابة التي سندخل الآن بين غصونها المتمايلة التي ستعانقنا جد عميقة ، ولعله يصعب على الآلهة نفسها أن تقطعها في رائعة النهار دون أن تصاب بشيء من الرعشة والخوف . وفي تلك الممرات الضيقة لا ترى آثار حوافر آلهة الغابات المزدوجة[2] متقفية آثار إلاهة الغابات . وكذلك لا تُرى بين الأوراق عيون آلهة الغاب الخضر ، محدقة بأنظار الرجال الفزعة . ولكننا لن نخشى شيئاً ولن نفرق أبداً ما دمنا نحن الإثنين معاً : « أنت ... وأنا »
— لا ، لن نخاف . إني أبكي بالرغم عني ، ولكني أحبك وسأذهب معك . إن في قلبي ألماً ! هيا حدثني ... حدثني كثيراً ... إن صوتك لينطوي على إله أيضاً !
— أرسلي شعرك الجميل حول عنقي ، ولفّي ذراعك حول نطاقي ، وضمي وجنتيك على وجنتي . إنتبهي واحذري . يوجد هنا حجارة . اخفضي بصرك ... يوجد هنا جذور ... الأرض ندية رطبة ، والعشب يتزلق تحت أقدامنا العارية . غير أني أشعر بحرارة نهدك تحت يدي
— لا تبحث عنه ، إنه ... صغير ، إنه ... فتيّ ، إنه ... غير جميل . في الخريف الماضي لم يكن أكبر منه ولا أنضج من يوم ولادتي . وكثيراً ما كان صديقاتي يسخرن مني بسبب ذلك . لقد بدا نموه في الربيع مع براعم الأزهار . لم يعد في طوق مواصلة المسير
— تعالي ... إننا نمشي في الظلام ... في الدجنة ، لم أعد أرى وجهك . لم نعد نظهر ، لقد لفنا الظلام واحتوانا الليل . تعالي نذهب إلى تلك الدوحة الكبيرة ، أمام أشعة القمر . إن ظلالها الكبير ... إنه يمتد إلى حيث نحن . هيا ... تعالي ! ...
— إنها ضخمة ... إنها في حجم قصر !
— قصر زفافك الذي يفتح أبوابه لاستقبالنا نحن الإثنين في جوف هذا الليل المقدس
— إني أسمع ضجيجاً ... إنه حفيف النخيل
— نخيل حفلة الزفاف الصخّاب
— وهذه النجوم ؟
— إنها المشاعل
— وهذه الأصوات ؟
— إنها الآلهة
— أيها الراعي ، لقد دخلت هذا المكان وأنا عذراء مثل « أرتميس » التي يسطع علينا نورها من بعد ... من خلال الأغصان السود ، والتي قد تكون مصغية إلى حديثنا الآن . لست أدري أأحسنت في مجيئي معك إلى هذا المكان ، أم لم أحسن ولكني كنت أحس أن روحاً بين جنبيّ تنبعث وأنا معك ، روحاً قدسية بمنها صوتك في أعماق . لقد منحتني السعادة الكاملة إذ منحتني يدك
— أيتها الفتاة ... يا ذات العينين السوداوين ، لم يَسْمَعْ أبوك ولا أبي إلى لمّ شملنا وتهيئة هذه السعادة لنا ، أمام مذبح مواقدهم وأنا أستبدل ثروتي بثروتك . نحن فقيران فنحن حُرّان إذن . إذا كان أحد قد سعى إلى زواجنا في هذا المساء كارفي عينيك ، إنهم الأولمبيون حماة الرعاة
— أي زوجي ... ما اسمك ؟
— أركاس ... وما اسمك ؟
— مليتا .

« دمشق » عبد الغني العطري

(١) ذو جناحين

(٢) Satyres يرمزون لهذه الآلهة (بشخص) ذي شعور شعث ، وأذنين طويلتين في الرأس كآذان الحيوانات ، وقرنين صغيرين في الجبهة وساقي تيس ، وتحمل في يدها قصبا أو آلة موسيقية ... الخ (معجم لاروس الطبعة الثلاثون بعد المئتين صفحة ١٦٧٦)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)